

## الفصل الثامن عشر

### غزوة تبوك

الامام (ع) وغزوة تبوك \* صور من غزوة تبوك \* الدلالات العلمية للنصوص \* معاني الخلافة على المدينة:  
1- اخلُفني في اهلي: انتقال الادارة الاجتماعية. 2- اصالة النيابة: أ - كفاءة النائب. ب - أُسس البناء الاجتماعي للمدينة. 3 - المسؤولية الدينية: أ - النيابة واقسامها. ب - المسؤولية الاخلاقية في الخلافة. 4 - الخلافة على الدولة وافرادها: أ - وضع الدولة التي خُلف (ع) على ادارتها. ب - وضع الافراد الذين خُلف على ادارتهم \* علي (ع) وسورة براءة: لا يؤدي عني الا رجل من اهل بيتي: 1 - الدلالات المستقاة من سورة التوبة. 2 - الاستنتاج.

## الامام (ع) وغزوة تبوك

وقعت غزوة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة. وقصتها ان «رسول الله (ص) امر اصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان عُسرة الناس، وشدة من الحر، وجذب من البلاد. وحين طابت الثمار، والناس يُحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه. وكان رسول الله (ص) قلماً يخرج في غزوة الا كُنِيَ عنها، وأخبر انه يريد غير الوجه الذي يصمد له (أي الذي يقصده)، الا ما كان من غزوة تبوك، فانه يبينها للناس لبعث الشُّقة (أي بعد المسير)، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبتة، فأمر الناس بالجهاز، واخبرهم انه يريد الروم.

يروى ان رسول الله (ص) قال ذات يوم، وهو في جهازه ذلك، للجدد بن قيس: يا جدّ، هل لك العام في جِلاَد بني الاصفَر (يعني اهل الروم)؟ فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي انه ما من رجل بأشدَّ عُجْباً بالنساء مني، واني اخشى ان رأيت نساء بني الاصفَر ان لا اصبر، فأعرض عنه رسول الله (ص) وقال: أذنت لك. ففي الجدّ بن قيس نزلت هذه الآية: (وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)<sup>1</sup>. أي ان كان انما خشي الفتنة من نساء بني الاصفَر، وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة اكبر، بتخلفه عن رسول الله (ص)، والرغبة بنفسه عن نفسه.

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحرّ، زهادة في الجهاد، وشكاً في الحق، وإرجافاً برسول الله (ص)، فأَنْزَلَ اللهُ تبارك وتعالى: (... وقالوا لا تنفروا في الحرّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فليضحكوا قليلاً وليكفوا كثيراً جزاءاً بما كانوا يكسبون)<sup>2</sup>»<sup>3</sup>.

وسار جيش رسول الله (ص) قاصداً تبوك في تلك السفرة الشاقّة، وعندما انتهى (ص) اليها اتاه «يُحَنَّةَ بن رُأبَةَ» صاحب أئلة، فصالح رسول الله (ص) واعطاه الجزية. واتاه اهل جرباء وأذرح، فاعطوه الجزية. فكتب رسول الله (ص) لهم كتاباً هذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم: هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله يُحَنَّةَ ابن رُؤبَةَ واهل ايلة، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر: لهم ذمة الله، وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من اهل الشام، واهل اليمن، واهل البحر. فمن احدث منهم حدثاً، فانه لا يحول ماله دون نفسه، وانه طيب لمن اخذه من الناس، وانه لا يحل ان يمنعوا ماءً يروونه، ولا طريقاً يريدونه، من بر او بحر»<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> سورة التوبة: الآية 49.

<sup>2</sup> سورة التوبة: الآية 81-82.

<sup>3</sup> سيرة ابن هشام ج 4 ص 159-160.

<sup>4</sup> م.ن. - ج 4 ص 169.

وانتهت غزوة تبوك بالجزية دون قتال. وكان رسول الله (ص) كان يعلم ان الامر سينتهي الى الجزية دون قتال، ولذلك فقد ابقى علياً (ع) في المدينة خليفةً عليها.

فكانت تلك الغزوة تقتضي اما ان يبقى رسول الله (ص) واما علي (ع) في المدينة ويذهب الآخر مع الجيش لقتال المشركين، بسبب بُعد المسافة، وضرورة وجود مدير يدير عاصمة الاسلام ويدافع عنها وقت الحاجة. فاختار رسول الله (ص) ان يُبقي علياً (ع) في المدينة. فاستغل المنافقون ذلك وهولوا له. فقد روى الهيثمي: «ان رسول الله (ص) قال لعلي حين اراد ان يغزو: انه لا بد من ان اقيم او تقيم. فخلّفه. فقال ناس: ما خلّفه الا شيء كرهه، فبلغ ذلك علياً، فأتى رسول الله (ص) فأخبره، فتضاحك ثم قال: يا علي، اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ ألا انه ليس نبي بعدي»<sup>5</sup>. وكان التضاحك من قبل رسول الله (ص) — لو صدقت الرواية — دالاً على تفاهة الشبهة التي اثارها المنافقون. فامضى (ص) دور علي (ع) وجعله بقية النبوة في غيابه (ص).

وفي رواية اخرى رواها النسائي: «لما غزا رسول الله (ص) غزوة تبوك خلّف علياً (كرم الله وجهه) في المدينة، قالوا فيه: ملّه وكره صحبته، فتنع علي (رضي الله عنه) النبي (ص) حتى لحقه في الطريق، قال: يا رسول الله، خلّفتني بالمدينة مع الذراري والنساء حتى قالوا: ملّه وكره صحبته؟ فقال النبي (ص): يا علي انما خلّفتك على اهلي، اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي بعدي»<sup>6</sup>.

وبكلمة، فان النبي (ص) عندما خرج الى تبوك اناب علياً (ع) عنه في اهله. فانتهاز الاعداء ذلك فقالوا: ان رسول الله (ص) تركه كرهاً واستثقالاً. فقال (ص): لقد كذبوا، انما خلّفتك لمن تركتهم ورائي فارجع واخلفني في اهلي واهلك. وقد تأوّل قوله تعالى: (... وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين)<sup>7</sup>، ثم اردف (ص) قائلاً موجهاً كلامه الى علي (ع): اما ترضى يا علي ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ فعلي من النبي (ص) في المرتبة في امور الدين كهارون من موسى. والى ذلك اشار ابن ابي الحديد: «... فقد كان معاوية حاضراً يوم الغدير، لانه حج معهم حجة الوداع، وقد كان ايضاً حاضراً يوم تبوك حين قال له بمحضر من الناس كافة: انت مني بمنزلة هارون من موسى»<sup>8</sup>.

<sup>5</sup> مجمع الزوائد. رواه الهيثمي عن البراء بن عازب وزيد بن ارقم ج 9 ص 111.

<sup>6</sup> الخصائص. ص 14. رواها النسائي باسناده عن سعد بن ابي وقاص.

<sup>7</sup> سورة الاعراف: الآية 142.

<sup>8</sup> شرح فتح البلاغة. ج 18 ص 24.

## صور من غزوة تبوك:

هذه صور مختلفة عن الغزوة تحكي قصص التضحية والايتار والاخلاص التي كان يصوغها المؤمنون الاوائل، وتحكي ايضاً قصة الندم على تباطؤ بعض المؤمنين في اداء تكليفهم الشرعي.

**1 -** «... ثم مضى رسول الله (ص) سائراً، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: دعوه، فان يك فيه خيرٌ فسيلحقه الله تعالى بكم، وان يك غير ذلك فقد اراحكم الله منه. حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلف ابو ذر، وأبطأ به بعيره. فقال: دعوه، فان يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وان يك غير ذلك فقد اراحكم الله منه ؛ وتلوم<sup>9</sup> ابو ذر على بعيره، فلما ابطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره. ثم خرج يتبع اثر رسول الله (ص) ماشياً. ونزل رسول الله (ص) في بعض منازلها، فنظر ناظر من المسلمين، فقال: يا رسول الله، ان هذا الرجل يمشي على الطريق وحده. فقال رسول الله (ص): (كُنْ ابا ذر)<sup>10</sup>. فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله ابو ذر. فقال رسول الله (ص): (رحم الله ابا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده). [وبعد ان دارت الايام] ونفى عثمان ابا ذر الى الرَبِذَةِ<sup>11</sup> واصابه بها قدره، لم يكن معه احد الا امرأته وغلّامه، فأوصاهما ان اغسلاني وكفّاني، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فاول ركب يمر بكم فقولوا: هذا ابو ذر صاحب رسول الله (ص) فأعينونا على دفنه. فلما مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق ؛ واقبل عبد الله بن مسعود في رهطٍ من اهل العراق عُمّار، فلم يرُعْهم الا بالجنازة على ظهر الطريق، قد كادت الابل تطؤها. وقام اليهم الغلام. فقال: هذا ابو ذر صاحب رسول الله (ص)، فأعينونا على دفنه. قال: فاستهلّ عبد الله بن مسعود يبكي ويقول: صدق رسول الله (ص)، تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتُبعث وحدك. ثم نزل هو واصحابه فواروه، ثم حدثهم عبد الله بن مسعود حديثه، وما قال له رسول الله (ص) في مسيره الى تبوك<sup>12</sup>.

**2 -** ان ابا خيثمة رجع - بعد ان سار رسول الله (ص) اياماً - الى اهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين<sup>13</sup> لهما في حائطه (أي بستانه) ، قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماءً، وهيات له فيه طعاماً. فلما دخل قام على باب العريش، فنظر الى امرأته وما صنعتا له. فقال: رسول الله (ص) في الصَّحِّ (أي الشمس) والرياح والحر، وابو خيثمة في ظلِّ بارد، وطعام مهياً، وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما

<sup>9</sup> تلوم: تمكث وتمهل.

<sup>10</sup> كُنْ ابا ذر: لفظه لفظ الامر، ومعناه الدعاء. اي ارجو الله ان تكون ابا ذر.

<sup>11</sup> الرَبِذَةُ: موقع قرب الشام.

<sup>12</sup> سيرة ابن هشام. ج 4 ص 167-168.

<sup>13</sup> العريش: شبيهة بالخيمة، يظلل ليكون أبرد الاحبية والبيوت.

هذا بالتَّصْفِ! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله (ص)، فهَيِّئَا لي زاداً، ففعلنا. ثم قدم ناضحه فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله (ص) حتى ادركه حين نزل تبوك ... حتى اذا دنا من رسول الله (ص) وهو نازل بتبوك. قال الناس: هذا راكب على الطريق مُقبِل. فقال رسول الله (ص): كن أبا خثيمة. فقالوا: يا رسول الله، هو والله أبو خثيمة. فلما أناخ اقبل فسَلَّم على رسول الله (ص)، فقال له رسول الله (ص): اولى لك<sup>14</sup> يا ابا خثيمة. ثم أخبر رسول الله (ص) الخبر، فقال له رسول الله (ص) خيراً، ودعا له بخير<sup>15</sup>.

**3 - ...** وقد كان تخلف عنه رهطٌ من المنافقين، وتخلف اولئك الرهط الثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق [ولكن تباطأً وفتور همة، وهم:] كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. فقال رسول الله (ص) لاصحابه: لا تكلمنَّ أحداً من هؤلاء الثلاثة. وأتاه من تخلف عنه من المنافقين، فجعلوا يخلفون له ويعتذرون، فصّح عنهم رسول الله (ص) ولم يعذرهم الله ولا رسوله. واعتزل المسلمون كلام اولئك النفر الثلاثة خمسين يوماً بلياليها. حتى انزل الله تعالى: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريقي منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم. يا أيها الذين امنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)<sup>16</sup>.

قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليّ نعمة قط بعد ان هديني للاسلام كانت أعظم في نفسي من صدقي رسول الله (ص) يومئذ، ان لا أكون كذبتة، فأهلك كما هلك الذين كذبوا [من المنافقين]، فان الله تبارك وتعالى قال في الذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال: (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجسٌ ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون. يخلفون لكم لتعرضوا عنهم فإن تعرضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين)<sup>17</sup>.

(<sup>14</sup>) اولى لك : اسم سمي به الفعل. كلمة فيها معنى التهديد. في التفسير : دنوت من الهلكة.

(<sup>15</sup>) «سيرة ابن هشام» ج4 ص163 - 164.

(<sup>16</sup>) سورة التوبة : آية 117 - 119.

(<sup>17</sup>) سورة التوبة : آية 95 - 96.

قال: وكنا حَلَفْنَا [نحن] الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قَبِلَ منهم رسول الله (ص)، حين حَلَفُوا له فعذرهم، واستغفر لهم، وارجأ رسول الله (ص) أمرنا، حتى قضى الله فيه ما قضى، فبذلك قال الله تعالى: (وعلى الثلاثة الذين خَلَفُوا...) <sup>18</sup>.

وليس الذي ذكر الله من تخليفنا لتخلفنا عن الغزوة، ولكن لتخليفه ايانا، وارجائه أمرنا عمّن حَلَفَ له، واعتذر اليه، فقبل منه <sup>19</sup>.

### الدلالات العلمية للنصوص

كانت تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله (ص) قبل وفاته (ص)، وكانت من أشق الغزوات وابعدها عن المدينة. والمتأمل في ظروف تلك الغزوة يستنتج بأنها كانت امتحاناً للمسلمين بحسن اسلامهم، وتمييزاً بين المؤمنين والمنافقين، وتدريباً للامام (ع) على استخلاف رسول الله (ص). وعلى أي تقدير، فإن في تلك الغزوة ثلاث خصائص متميزة نذكرها فيما يلي:

**1 -** قول رسول الله (ص) لعلي (ع) وهو على مشارف المدينة: «اخلفني في اهلي واهلك». فلا بد ان نبحت في معنى الاهل في اللغة. قال الجوهري: «الأهل: أهل الرجل، وأهلُ الدار» <sup>20</sup>. وقال الراغب الاصفهاني: «أهل الرجل: من يجمعه واياهم نسب أو دين، او ما يجري مجراها من صناعة وبيت وبلد» <sup>21</sup>. وحسب تلك التعاريف، نستنتج ان المراد من جملة «اخلفني في أهلي» احد أربعة معانٍ هي: أ - اخلفني في أسرتي: وهذا ما لا وجه له، لان الخلافة في الاسرة تقتضي الابوة والبنوة أو نحوها. وهذا ما ليس بين علي (ع) ومحمد (ص).

**ب -** اخلفني في نسي: قال الراغب الاصفهاني: «واهل الرجل في الاصل: مَنْ يجمعه واياهم مسكن واحد، ثم تجوز به فصيل: اهل الرجل لمن يجمعه واياهم نسب» <sup>22</sup>. والمعنى هنا لا يساعد. فلا معنى ان يخلفه في عشيرته دون سائر الناس.

<sup>18</sup> (سورة التوبة: آية 118).

<sup>19</sup> (سيرة بن هشام» ج4 ص175، 181).

<sup>20</sup> (الصحاح» ج3 ص1628 مادة «أهل»).

<sup>21</sup> (مفردات الفاظ القرآن» - الراغب الاصفهاني ص96 مادة «أهل»).

<sup>22</sup> (المصدر السابق». ص96 مادة «أهل»).

ج - اخلفني في أهل داري: ولا يستقيم المعنى هنا ايضاً، لان الخلافة هنا ولاية شرعية غير منحصرة، الا اللهم يُراد منها دار الاسلام. وهنا يستقيم المعنى تماماً. أي يا علي اخلفني في اهل دار الاسلام، وهم اهلي واهلك. وهو معنى يشمل اهل بيت النبي (ص) وذريته وزوجاته وكل من سكن دار الاسلام.

د - اخلفني في أهل ديني: وهو معنى مقارب لمعنى «أهل الاسلام» لان الاسلام يجمعهم. وهو معنى قوي، الا ان التفسير الثالث وهو: «اخلفني في اهل داري» اقوى. لانه يشمل دار الاسلام بما فيهم المتظاهرون بالاسلام وقلوبهم غير مؤمنة به، ويشمل العاجزين والقاعدين لاسباب شرعية وغير شرعية.

اذن، نستنتج بان النبي (ص) اراد من الامام (ع) ان يخلفه في دار الاسلام - وهي المدينة وما جاورها - خلافة شرعية مع صلاحيات الخلافة من توزيع الثروة الاجتماعية، واقامة الحدود، والدفاع عن المدينة من الاعداء.

2 - كانت غزوة تبوك اول غزوة كبيرة يُصالح فيها العدو على الجزية. وهذا يؤيد ما ذكرناه في موضع آخر من هذا الكتاب، بأن من آثار شجاعة امير المؤمنين (ع) وتطايير أنبائها في الآفاق ان قضية الردع بدأت تُؤتي ثمارها. فبعد كل تلك الجهود البطولية الحثيثة من قبل علي (ع) والثبات في المعركة وقتل النخبة من المشركين، اصبح العدو يخشى الجيش الاسلامي بقيادة رسول الله (ص)، ويفضّل اعطاء الجزية على الدخول في حرب مع المسلمين.

3 - كان لإستخلاف الامام (ع) على المدينة دلالات كبيرة. فقد كانت تلك الغزوة إخر غزوات النبي (ص) وابعدها عن المدينة. فكان لابد من اجراء احترازي لمستقبل الاحداث في الاسلام، وكان لابد من اظهار مقدرة علي (ع) في الادارة الاجتماعية لمجتمع المسلمين، وكان لابد من ارسال رسالة واضحة المعالم للطامحين بخلافة رسول الله (ص) بالتنحي عن مطامحهم، لان علياً (ع) هو المؤهل الوحيد لتلك المهمة الاستثنائية. ولاشك ان كلمات الاستخلاف كانت واضحة وقوية للغاية، فقد جعله (ص) بمنزلة هارون من موسى، لكنه نفى النبوة بعده (ص). والقوة في التعبير لا تُبقي مجالاً للشك في منزلة علي (ع) في الاسلام ودرجة قرابته الدينية والعلمية من رسول الله (ص).

### معاني الاستخلاف على المدينة

كانت لخلافة علي (ع) على المدينة معانٍ ضخمة، اراد المنافقون في ذلك الزمان التقليل من شأنها وتحجيمها. ولكن بدارسة معمّقة لطبيعة النيابة والاستخلاف على المدينة نكتشف انه لم يكن مجرد استخلاف على مجموعة افراد، بل كان استخلافاً على مجتمع مؤسسات ودولة بكل ما تعنيه الكلمة.

## 1 - اخلفني في أهلي: انتقال الادارة الاجتماعية

ان فلسفة «اخلفني في أهلي» تقتضي الحفاظ على مجموعة من الانظمة الاجتماعية والاجهزة الدينية التي تُمسك بخيوط المجتمع. فهي تقتضي الحفاظ على تركيبة النظام الاجتماعي والسياسي للمجتمع الديني من حيث الهرم الاداري. وتقتضي ايضاً الحفاظ على العمليات الاجتماعية من زاوية القضاء وحل الخصومات، وتوزيع الثروة واشباع الفقراء، والتعبديات واقامة الفرائض الجماعية، وعدالة السوق التجاري ونظافته من الربا والاحتكار، وتطبيق العقوبات على المنحرفين ونحوها. وهذا كله يفضي بانتقال الادارة الاجتماعية من يد امينة الى يد امينة اخرى. فاذا أُريد لحركة الاسلام ان تستمر، فلا بد ان يخلف النبي (ص) شخصاً عالمياً مؤتمناً كفوءاً لادارة مجتمع المدينة خلال غيابه في تبوك، كما خلف النبي موسى (ع) اخاه هارون لادارة شؤون مجتمع بني اسرائيل خلال غيابه (ع) عنهم والتماسه الجبل.

ولا شك ان تبوك كانت مرحلة تمرين وامتحان للصحابة بحسن استيعاب قضية الولاية الشرعية بعد رسول الله (ص) وفهمها فهماً صحيحاً بعيداً عن الاهواء والطموحات السياسية القبلية. خصوصاً وان قضية تبوك ونظرية «اخلفني في أهلي» قد جاءت قبل واقعة الغدير بفترة زمنية قصيرة.

ومخاطبة رسول الله (ص) لعلي (ع): «اخلفني في أهلي» كانت قد لَحظت الضغط السياسي المحلي من قبل الطامحين بالسلطة من قريش من الذين اسلموا مؤخراً، ولحظت الكبار الذي وضعهم الاسلام بحجمهم الحقيقي وكانوا وقتها قادة قريش، ولحظت المنافقين ومن الذين في قلوبهم مرض من الذين تخلفوا عن رسول الله (ص) خلال مسيره الى تبوك، ولحظت الوضع النفسي المتغير للاعراب وبعض الجنود الذين لا يفكرون الا بالغنائم. فصورة الوضع الاجتماعي للمدينة، كانت صورة واضحة لرسول الله (ص) عندما خلف علياً (ع) لإدارتها وقت غيابه في معركة حاسمة مثل تلك المعركة. وقد كان النبي (ص) يعلم يقيناً ان علياً (ع) هو اكثر الناس كفاءةً لادارة المجتمع الديني في المدينة، لاسباب (منها): ادراكه الواقعي لاحكام الشريعة. و(منها): نضوجه الحربي والفكري والاجتماعي بحيث يستطيع حمل راية الاسلام خفاقة بعد رسول الله (ص). وكان الامام (ع) يعلم بحجم التكليف الذي حمله اياه رسول الله (ص). ولكنه (ع) ارادها ان تُسمع عالية واضحة انه لم يخلفه (ص) على مجرد النساء والصبيان كما يتبادر في الذهن اول مرة، بل اراده في ذلك التكليف انجاز ما ينجزه الرسل والانبياء (عليهم السلام) عادةً كما قال (ص): «الا ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من

موسى الا انه لا نبي بعدي»<sup>23</sup>. وقد كلف موسى (ع) اخاه هارون بقوله: (...اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين)<sup>24</sup>.

## 2 - اخلفني في أهلي: اصالة النيابة

تعني النيابة او عبارة «اخلفني في اهلي» اصالة علاقة اخلاقية وقانونية بين شخصين هما: النائب، والمنوب عنه. حيث تنتقل السلطة او المسؤولية القانونية الى النائب للقيام بالاعمال الموكولة اليه من قبل المنوب عنه. وتلك العلاقة محكومة بشروط موضوعية عديدة. ولا يمكن تفريغ علاقة ضخمة من ذاك القبيل من شروطها الموضوعية. ففكرة النيابة مشروطة بتطابق التكليف مع القدرة الكاملة على انجازه تاماً. ولذلك قيل ان «النيابة» عملية معقدة خصوصاً اذا تعلقت بقضايا السلطة وادارة المجتمع. لان لها تأثيراً على حقوق الناس ومعتقداتهم وتكاليفهم الشرعية والاجتماعية.

### أ - كفاءة النائب:

ولا شك ان دراسة حجم المسؤولية الملقاة علي عاتق علي (ع) في النيابة او الخلافة على المدينة خلال غزوة تبوك يكشف عن عمق شخصية الامام (ع) وعلاقته الصميمية بالنبوة وبمحمد (ص). فقد كان رسول الله (ص) يعلم ان في شخصية علي (ع) ثلاثة عناصر او شروط تستطيع ان تحقق خلفاً صالحاً لخير سلف، وهي:

**الاول:** قوة ادراك علي (ع) لمقتضيات الشريعة واحكامها ونظامها الاخلاقي والعقائدي. وكان ذلك واضحاً في ادراكه اسرار القرآن الكريم، والسيرة النبوية الشريفة. وتوضيح الامر اكثر عندما كان المنقذ لكثير من المشاكل التي حصلت بعد رسول الله (ص)، وعجز الخلفاء الثلاثة عن معالجتها معالجة شرعية.

**الثاني:** قوة علي (ع) الذهنية التي تستطيع ان تدير الامور الاجتماعية في عاصمة الدولة الاسلامية. خصوصاً اهتمامه بالفقراء والمعوزين، وتقسيم الثروة الاجتماعية بالتساوي لمستحقيها.

**الثالث:** قدرة علي (ع) في إحكام تماسك المجتمع الاسلامي دينياً، لانه كان يمتلك تلك الشخصية الاستثنائية في البطولة، والايثار، والزهد، والتقوى، والعلم، والعبادة، ومواساة الفقراء والمحرومين. وتلك الصفات الفاضلة اذا اجتمعت في شخصية واحدة، كان لها القدرة على جمع العابد مع العالم، والتاجر مع

<sup>23</sup> «الخصائص». ص14. رواها النسائي باسناده عن سعد بن ابي وقاص.

<sup>24</sup> سورة الاعراف: آية 142.

الفقير، والغني مع المحتاج، والقوي مع الضعيف. واذا تم جمع تلك العناصر في خيمة اجتماعية واحدة يسودها الحب والتكاتف والمسؤولية، اقترب الاسلام من تحقيق اهدافه العليا في الحياة.

## ب - أسس البناء الاجتماعي للمدينة:

ومن الطبيعي فان رسول الله (ص) عندما قال لعلي (ع): «اخلفني في اهلي واهلك»، «اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى» لخط بعض الاسس في البناء الاجتماعي للمدينة وهي:  
أولاً: التركيبة الاجتماعية لمجتمع غاب عنه رسول الله (ص)، وفيه المنافقون الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وكان فيهم تجار وتمولون، والقاعدون الذين لا يهتمهم انتصار الاسلام او انكساره، والقاصرون والعاجزون من نساء وصبيان وشيوخ، وبعض من المؤمنين تخلفوا كسلاً وليس عدم رغبة في القتال.

ثانياً: الشعور في المجتمع المدني تجاه القضايا العامة. وكان شعوراً يتراوح بين اللابالية وبين العداء المبطن ضد الاسلام. يصفه لنا القرآن الكريم بالقول: (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)<sup>25</sup>، وكانوا يتظاهرون بانهم مؤمنون ولكنهم ليسوا كذلك: (ويخلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون)<sup>26</sup>. وكان منهم من كان يطعن في أمر الصدقات: (ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون)<sup>27</sup>. ومنهم الذين استأذنوا النبي (ص) واعطوا الاعذار الفاسدة: (إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم اغنياء رضوا بان يكونوا مع الخوالف...)<sup>28</sup>، (ومنهم من يقول أئذني لي ولا تفتني الا في الفتنة سقطوا...)<sup>29</sup>.

وكانت تلك النماذج موجودة في مجتمع المدينة خلال غياب رسول الله (ص)، فكانت النيابة او الخلافة على دار الاسلام تقتضي التعامل مع هؤلاء تعاملًا اخلاقياً حذراً بما يوحيه التكليف الشرعي. وبالاجمال، فقد كان شعور تلك الشريحة الواسعة في مجتمع المدينة شعوراً سلبياً ضد الدين، ولذلك قال علي (ع) متسائلاً مخاطباً: «يا رسول الله، خلفتني بالمدينة مع الذراري والنساء حتى قالوا: مله وكره

(<sup>25</sup>) سورة التوبة: آية 81.

(<sup>26</sup>) سورة التوبة: آية 56.

(<sup>27</sup>) سورة التوبة: آية 58.

(<sup>28</sup>) سورة التوبة: آية 93.

(<sup>29</sup>) سورة التوبة: آية 49.

صحبتة؟»<sup>30</sup>، وكأنه تجاهل (ع) وجود تلك المجاميع من الرجال التي فضّلت البقاء على نصره الدين. ولكنها على اية حال، كانت تشكل خطراً على الوضع الاجتماعي والديني في المدينة.

**ثالثاً:** ان النيابة او الخلافة لم تكن مجرد خلافة على مال محفوظ او على ارض مستثمرة او على بستان او على ملك محدود، بل كانت خلافة على تدبير امور مجتمع تضمّن شرائح متناقضة من مؤمنين ومنافقين واعراب واهل ذمة، ومجتمع احتوى على مؤسسات مدنية مثل بيت المال، ومصالح زراعية وصناعية وتجارية، ومساكن، وادوات حرب واسلحة ونحوها. وبكلمة، فقد كانت خلافة على مجتمع مؤسسات وليست خلافة على مجرد أفراد.

ولا شك ان الامة تتوقع من الخليفة او النائب دوراً يشابه دور الاصيل في الادارة الدينية والاجتماعية. وصفات النائب وموقفه الحكيم الحازم من الاحداث ودوره في المؤسسات الاجتماعية كبيت المال والجيش والزراعة والصناعة والتعليم ينبغي ان يكون متمماً لدور الاصيل في ذلك.

ولم يكن علي (ع) بعيداً عن ذلك. بل كان (ع) من اهل بيت النبوة (ع)، قضى جلّ حياته مع رسول الله (ص). وكان يتحلّى بصفات خاتم الانبياء (ص)، ويحمل نظرتة نحو الدين والحياة والتكاليف الشرعية. ولذلك فقد كان متوقعاً ان يقوم علي (ع) باتمام دور الاصيل (ص)، عبر طريقين متلازمين:

**الاول:** المهارة الدينية التي كان يمتلكها (ع) في ادارة امور الامة سياسياً وعسكرياً واجتماعياً. وقد اشرنا الى لمحات منها آنفاً.

**الثاني:** توقع الامة ثبات الوضع الديني وعدم تغييره عند غياب رسول الله (ص). لانهما كانت تعرف ان علياً (ع) كان فيه بقية من النبوة ونسخة من علم رسول الله (ص) وتقواه وعفته وزهده وشجاعته.

### 3 - اخلفني في اهلي: المسؤولية الدينية

ولو طرح التساؤل التالي: ماذا تحمل جملة «اخلفني في اهلي»؟ هل هي تعني فكرة امر من اوامر الخلافة او النيابة؟ او تعني فكرة المشاهدة والمناظرة بين النائب والاصيل؟ او تعني فكرة تحمل المسؤولية الدينية والاخلاقية في ادارة الامة؟

#### أ - النيابة واقسامها:

في الاجابة على ذلك لا بد من تقسيم النيابة او الخلافة الى ثلاثة اقسام:

(<sup>30</sup>) «الخصائص». ص 14. رواها النسائي باسناده عن سعد بن ابي وقاص.

**الاول:** الانتداب. قال الجوهرى: «نَدْبُهُ لأمرٍ فانتدبَ له، أي دعاه له فأجاب»<sup>31</sup>، وهي تحمل فكرة المندوب الذي يُمنح تفويضاً أو يستلم أوامرَ من المنتدب وينفذها حرفاً بحرف. وهي فكرة قضائية قانونية بالدرجة الاولى. فالقاضي ينتدب من يراه صالحاً لحل الخصومات بين افراد في قضية معينة. وقد انتدب رسول الله (ص) علياً (ع) عند فتح مكة وارسله على بني حزيمة بن عامر ليوادهم على ما فعله خالد بن الوليد من قتل. وجملة «اخلفني في اهلي» لا تعطي معنى تلك المهمة المحدودة الخاصة بطرف معين وظرف مقيد.

**الثاني:** المناظرة والمشاهدة: وهذه تحمل فكرة ان الخلافة جاءت بسبب النسب والعلاقة الرحمية بينهما. فالملكُ مثلاً يستخلف ابنه على ملكه. وقد يقال بان علياً (ع) كان ابن عم رسول الله (ص) وزوج ابنته فاطمة (ع)، ولذلك منحه شرف الخلافة على المدينة خلال غزوة تبوك. واذا كان هذا الامر سليماً على المستوى الاسري، فانه لا يصحُّ على المستوى الاجتماعي. ذلك ان ادارة المجتمع تحتاج الى مؤهلات ولياقات غير متوفرة حتى في اعمام رسول الله (ص) كحمزة والعباس فضلا عن ابناء عمه جعفر وعقيل. ولذلك فهو (ص) لم يكلفهم في حياته بما كلف به عليا (ع). يضاف الى ذلك ان المسؤولية الدينية تختلف عن المسؤولية الادارية في انظمة دنيوية كالانظمة السياسية العلمانية السائدة اليوم. وفكرة «اخلفني في اهلي» لا تعطي هذا المعنى.

**الثالث:** المسؤولية الدينية: وتعني هنا ان الخلافة او النيابة كانت تمثل إدارة الدين في ادارة مجتمع دار الاسلام. فما يريد الدين هو إدارة الشريعة والملاكات التي تمثله احكامها. وليس هناك ادنى شك بان رؤية الدين تجاه الذين تنتخبهم السماء يتطابق مع رؤيته لملاكات الاحكام ومقتضياتها. ولذلك كان علي (ع) - في نظر السماء - حارساً لاحكام الشريعة وملاكاتها في غياب النبي (ص). وهذا المعنى مطابق تماماً لفكرة: «اخلفني في اهلي».

ولا شك ان المسلم الذي كان يعيش في المدينة ذلك الوقت كان يطمئن عندما يعلم ان هناك من يقوم مقام رسول الله (ص) في الادارة الدينية والاجتماعية. فكان الامام (ع) مرآة الشريعة عند غياب رسول الله (ص) عن الساحة. ذلك ان غياب رسول الله (ص) دون وجود نائب ينوبه في عاصمة الاسلام يعني إحداث فجوة كبيرة بين المسلمين وقيادتهم الشرعية.

اذن يكون الجواب على التساؤلات المطروحة آنفاً هو ان فكرة «اخلفني في اهلي» كانت تعني تحمل المسؤولية الدينية والاخلاقية في ادارة امة الاسلام خلال غياب رسول الله (ص).

(<sup>31</sup>) «الصاح». ج 1 ص 223 مادة «ندب».

## ب - المسؤولية الاخلاقية في الخلافة:

وفي ضوء تلك القاعدة نؤمن بان المسؤولية الاخلاقية في خلافة المدينة خلال غزوة تبوك كانت على طرفين:

**الاول:** الالتزام الاخلاقي تجاه الله عز وجل ورسوله (ص) والدين. وهو الزام نشأ معه علي (ع) وتربى عليه، وهو في احضان رسول الله (ص) صبياً. وتلك مسؤولية مستقلة تعلّمها علي (ع) من النبي (ص).  
**الثاني:** الالتزام الاخلاقي تجاه المجتمع عموماً والطبقة المحرومة بالخصوص كالقاصرين والعاجزين والفقراء. وتلك مسؤولية دينية تابعة لطبيعة المجتمع وظروفه وشروط معيشته.

وبكلمة، فقد كان السلوك المسؤول لقائد مثل الامام (ع) في المدينة خلال تلك الفترة الصعبة سلوكاً اخلاقياً غنياً بصفاء الروح والعقل والضمير، والكفاءة المطلقة في ادارة امور الناس. ولذلك فقد كانت ولايته القصيرة على المدينة خلال غياب النبي (ص) ولاية اخلاقية مسؤولة مسكت بطرفي الرداء، وهما:

أ - الاشراف المباشر على المحرومين والاهتمام بشؤونهم وسد حاجاتهم.

ب - الكفاءة الحكومية التي تبلورت فيها كليات الادارة الاجتماعية للدين.

ولذلك كان علي (ع) يطمح في تحقيق هدفٍ سامٍ وهو تقديم مصلحة الدين على جميع المصالح الاخرى في المجتمع. فاذا تزعزعت مقاعد اجتماعية لقومٍ من اجراء توزيع الثروة الاجتماعية على الفقراء، فان ذلك يعني تقديم مصلحة الدين على مصالح الآخرين. واذا كان الموقف يتطلب اجراء الحدود على المنحرفين، فان ذلك يعني تقديم مصلحة الدين على مصالح الآخرين، وهكذا.

ولا شك ان التمثيل السياسي في النظام الديني لا يحتاج الى انتخاب من قبل الافراد، ذلك لان التعيين السماوي يلحظ المهارات التي يتمتع بها القائد والتي نطلق عليها اصطلاحاً «العصمة» في الدين والدنيا. فالعملية هنا لا تحتاج الى استفتاء او عملية انتخابية من قبل الناس، بل ان الدين ينصّ على التعيين.

واذا كان المعصوم مثل علي (ع) يعلم ملاكات الاحكام وعللها، ولديه تلك المؤهلات والمهارات والصفات الشخصية، فانه سيكون حتماً مرشح السماء للادارة الاجتماعية للناس في غياب الاصل (ص). والامة بشرائعها المختلفة لابد ان تعرف المعصوم (ع) من خلال سلوكه الاخلاقي والاجتماعي الرفيع، فهو يعيش معها حقبة متلاحقة واجيالاً متعاقبة. فكما ان السفير الذي يمثّل دولته لدى دولة اخرى يُعيّن بسبب كفاءته ولياقته ولا ينتخب، كذلك الامام المعصوم (ع) فانه يُعيّن بسبب لياقته وكفاءته في ادارة المجتمع، وتعرفه الامة من خلال ذلك. فهو سفير السماء اليها.

#### 4 - اخلفني في اهلي: خلافة علي الدولة الاسلامية وافرادها

والحديث عن الخلافة على المدينة خلال غزوة تبوك يستدعي التعرض بإيجاز لوضع النظام الاجتماعي والسياسي الذي خُلف على ادارته، ووضع الافراد الذين خُلف على تأمين شؤونهم.

#### أ - وضع الدولة التي خُلف (ع) على ادارتها:

وهو وضع جغرافي سكاني خاص، فقد كانت المدينة قبل الاسلام مقسمة بشرياً الى ثلاثة اقسام: الاوس، والخزرج، واليهود. وبعد الاسلام ضمت المدينة بين جناحيها مجموعة من الناس، وهم بشكل رئيسي: المسلمون المؤمنون من مهاجرين وانصار، والمنافقون، واليهود. وسوف نفصل في التركيبة السكانية للمدينة خلال غزوة تبوك بعد قليل ان شاء الله تعالى.

اما على مستوى المؤسسات الخاصة بدولة الاسلام، فقد كانت على الترتيب التالي:

**1 - بيت المال، وهو من اهم المؤسسات التي كان يريها رسول الله (ص) وخليفته (ع) لانهما كانت توزع الحقوق على الفقراء من صدقات واحماس وزكوات واجبة او مندوبة، وكانت توزع الغنائم على المقاتلين.**

**2 - السوق التجاري، حيث كانت تعرض فيه المواد الغذائية من طعام ذلك الزمان كالكمح والشعير والتمر والزبيب، والانعام كالغنم والبقر والجمال، والاقمشة المنسوجة، والصناعات الخرفية والصناعات اليدوية المعمولة بخص النخيل. وقد كان السوق يمثّل الشريان الحيوي للناس في المدينة لانه كان يزودهم بما يحتاجونه من امور معاشية في حياتهم الاجتماعية.**

**3 - الجيش. حيث كان الناس ينفقون على مؤسستهم العسكرية ثم يسترجعونها بما يحصلون عليه من غنائم. ولذلك كان الفقراء غير قادرين على الخروج لانهم لا يملكون عدّة ما يخرجون به ويحاربون فيه كالراحلة او السيف او الزاد. وقد ذهب الجيش خلال خلافته المؤقتة (ع) الى تبوك بقيادة رسول الله (ص).**

**4 - المسجد. وهو دار الدولة ومركزها وفيه تتم الخطط الحربية والتبليغية، ويتم فيه تعليم الناس القرآن والاحكام الشرعية. وتقام فيه العبادات من صلاة الجمعة والجماعة والعيدين. ويضم المسجد عدة مؤسسات اجتماعية، منها: نظام الادارة وتوزيع الحقوق، والنظام التعليمي، والنظام القضائي، والضمان الاجتماعي، والادارة العسكرية، ونحوها.**

**5 - القضاء. وهي المؤسسة التي تهم بحل النزاعات بين المتخاصمين من الافراد على صعيد الحقوق والملكية.**

6 - الزراعة والصناعة. وكانت المدينة تشتهر بالزراعة والصناعة. وتلك تدرّ وارداً على الدولة فيما يتعلق بالخراج والزكاة، وتسدّ حاجة الناس للمواد الغذائية والمصنوعات الخاصة بالمنزل.

7 - الاحياء العمرانية. وهي مساكن الناس ودورهم ومنازلهم التي يأوون اليها، وفيها مستلزمات حياتهم ومعاشهم.

وتلك المؤسسات التي تركها رسول الله (ص) في اطول غزوة له «بلغت مدتها عدة اشهر» كانت بحاجة الى ادارة اجتماعية وتنظيم ديني للاولويات. وادارة الدولة باطارها الخارجي يحتاج الى كفاءة ادارية ودينية كان يملكها الامام (ع) دون بقية المسلمين. ولذلك كانت خلافة الامام (ع) على مجتمع مؤسسات لا مجتمع افراد، كما اشرنا الى ذلك سابقاً.

### ب - وضع الافراد الذين خُلف على ادارتهم:

وهنا ينبغي الاشارة الى ان الامام (ع) كان يولي الالزامات الدينية كالقضايا التعبدية واشباع الفقراء اولوية على النشاطات الثانوية كحضور منتدياتهم واجتماعاتهم ونحوها. فكان (ع) يقدم الواجبات الاخلاقية التي جاء بها الدين مثل رعاية اليتيم واشباع المسكين والاهتمام بالرعية على الكماليات التي احبها الناس كطيب الطعام، والبرودة في وسط هجير الصيف، والتحلل من المسؤوليات الاجتماعية، ونحوها. ودراسة اجتماعية للشرائح التي بقيت في المدينة خلال غزوة تبوك تكشف لنا التركيبة السكانية لعاصمة الاسلام في تلك الحقبة التاريخية الحساسة:

أولاً: المنافقون الذين كانوا يتظاهرون بالاسلام ولكنهم كانوا يضمرون العداة والمكيدة ولا يخرجون مع رسول الله (ص) في حروبه، وفي مقدمتهم رأس النفاق عبد الله بن ابي بن سلول. وهؤلاء كانوا يجنون الراحة والدعة والاجواء المسترخية على الجد والجهاد. فكانوا بحاجة الى قائد ديني زاهد متعفف يذكّرهم بالله سبحانه وتعالى دوماً. فادارة هذا النمط من الافراد يحتاج الى زهد وإيمان وقوة يقين كما يحتاج الى كفاءة ادارية صارمة.

ثانياً: المسلمون المؤمنون من فقراء الرجال، وقد بقي هؤلاء في المدينة لانهم لم يتمكنوا من تحصيل عدّة السفر والجهاد. والقاصرون من نساء وذراري، من عوائل المقاتلين الذين ذهبوا الى تبوك مع رسول الله (ص). والعاجزون عن القتال لاسباب صحية وجسمية كالمرض والسن. وكان هؤلاء بحاجة الى قائد ديني ينظر في حاجاتهم الشرعية والمعاشية. وادارة تلك الشريحة من الناس تحتاج الى علم ودين وتقوى واحساس بالعدالة ودوافع عملية لتطبيقها.

ثالثاً: اهل الذمة من يهود ونصارى، وهؤلاء بحاجة الى مدير يدير امورهم الاجتماعية ويستلم حريتهم لوضعها في بيت المال.

رابعاً: بقية الافراد الذين كانوا يأتون الى المدينة، كالأعراب من البوادي لشراء مستلزمات معيشتهم وبيع الفاضل من دوابهم، والتجار الذين كانوا يمرون بالمدينة وهم في طريقهم الى العراق او الشام او اليمن. ومجموعة من المحاربين مع الامام (ع) لحماية المدينة وأهلها من هجوم الاعداء. ولا شك ان ذلك الاستخلاف على المدينة كان تجربة فريدة للامام (ع) في الادارة الاجتماعية، خصوصاً انه كان متوقفاً للنبي (ص) ان يرجع ويرى عمل علي (ع) خلال غيابه. وكان امضاؤه (ص) لادارة علي (ع) شهادة عظمت على كفاءته (ع) وقدرته على تنظيم امور المجتمع الاسلامي بعد رحيله (ص) ايضاً. وهنا جمع علي (ع) \_ بكل كفاءة \_ بين طريقي الادارة الدينية للمجتمع، وبالخصوص فيما يتعلق بالحقوق والواجبات والتعدييات.

### علي (ع) وسورة براءة: «لا يؤدي عني الا رجل من اهل بيتي»

رجع رسول الله (ص) من غزوة تبوك في شهر رمضان من السنة التاسعة للهجرة. وفي ذي الحجة من نفس السنة تحرك المسلمون بأمر رسول الله (ص) لاداء فريضة الحج وكان على امرهم ابي بكر. فلما «نزلت سورة التوبة (براءة) قيل له: يا رسول الله لو بعثت بها الى ابي بكر. فقال (ص): لا يؤدي عني الا رجل من اهل بيتي. ثم دعا علي بن ابي طالب (رضوان الله عليه)، فقال له: اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر اذا اجتمعوا بمنى، انه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله (ص) عهد فهو الى مدته... فعندما كان يوم النحر قام علي بن ابي طالب (رضي الله عنه)، فأذن في الناس بالذي امره به رسول الله (ص). فقال: ايها الناس، انه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله (ص) عهد فهو الى مدته. وأجل الناس اربعة اشهر من يوم أذن فيهم، ليرجع كل قوم الى مآمنهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة الا احدٌ كان له عند رسول الله (ص) عهد الى مدة، فهو له الى مدته. فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان»<sup>32</sup>.

(<sup>32</sup>) سيرة ابن هشام، ج 4 ص 190 - 191.

وسورة براءة امرت بنقض ما بين رسول الله (ص) وبين المشركين من العهد العام الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم، والعهود الخاصة بينه (ص) وبين بعض قبائل العرب، وتحدثت عن تخلف من المنافقين عنه في تبوك، فكشفت سراير الناس خصوصاً المنافقين.

## 1 - الدلالات المستقاة من سورة التوبة:

نزلت هذه السورة سنة تسع من الهجرة كما ذكرنا، أي بعد حوالي سنة من فتح مكة، وقبل حجة الوداع بسنة واحدة.

ومحور السورة المباركة يدور حول امر المنافقين ويفضح اسرارهم، ولذلك سُمّيت في زمان النبي (ص) بـ «الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين باظهار نفاقهم، وسُمّيت بـ «المبعثرة» لأنها بعثت اسرارهم، وسُمّيت بـ «المشقشة» لأنها برأت من النفاق والشرك. وسُمّيت بـ «الحافرة» لأنها حفرت عن قلوب المنافقين ما كانوا يسترونه. وفيها آيات القتال مع المشركين، والقتال مع اهل الكتاب، وآيات عدم ولاية الكفار، وآيات الزكاة وغير ذلك.

وفي السورة دلالات مهمة نعرضها بالترتيب التالي:

اولاً: البراءة من المشركين: وفيها قوله تعالى: (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين. فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين)<sup>33</sup>. وفي الرواية «عن زيد بن نفع قال سألتنا علياً (ع): بأي شيء بُعثت في ذي الحجة؟ قال: بعثت بأربعة: لا يدخل الكعبة الا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع مؤمن وكافر في المسجد الحرام بعد عامه هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله (ص) عهداً فعهدته الى مدته ومن لم يكن له عهد فأجله اربعة اشهر»<sup>34</sup>.

وأعلنت السورة عن نجاسة المشركين، فقالت: (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا...)<sup>35</sup>.

ثانياً: قتال المشركين: وفيها قوله: (فإذا انسح الأربعة الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم...)<sup>36</sup>. فأمرهم عز وجل عند انقضاء الاجل وهو اربعة اشهر، بوضع السيف في المشركين. وهذا ناسخ لكل آية وردت في الصلح والاعراض عنهم. وفي مورد آخر: (قاتلوهم يُعذبهم الله بأيديكم ويخزهم

<sup>33</sup> (سورة التوبة: آية 1 - 2).

<sup>34</sup> «بجمع البيان» ج 5 ص 7. وسند الرواية هكذا: ذكر ابو عبد الله الحافظ باسناده عن زيد بن نفع.

<sup>35</sup> (سورة التوبة: آية 28).

<sup>36</sup> (سورة التوبة: آية 5).

وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ...<sup>37</sup> . وفي مورد ثالث عن قتال اهل الكتاب: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يُدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)<sup>38</sup> . وفي مورد رابع: (... وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً...)<sup>39</sup> . وفي مورد خامس: (انفروا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)<sup>40</sup> . وفي مورد سادس: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)<sup>41</sup> .

ثالثاً: ولكن اذا تاب المشركون فاحوانكم في الدين: وفيها قوله: (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)<sup>42</sup> . أي اذا قبلوا الاسلام بعد ان ندموا على ما كان منهم من الشرك، وأدوا التكاليف الشرعية من صلاة وزكاة فعاملوهم معاملة اخوانكم من المؤمنين.

رابعاً: النهي عن موالاة الكافرين وان كانوا اقرب نسباً: وفيها قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)<sup>43</sup> . وفيها دلالة صريحة على حرمة موالاة المؤمنين \_ في امر الدين \_ للكافرين وان كانوا في النسب الاقربين. قال «ابن عباس لما امر الله تعالى المؤمنين بالهجرة وارادوا الهجرة فمنهم من تعلقت به زوجته ومنهم من تعلقت به ابواه وأولاده فكانوا يمنعونهم من الهجرة فيتركون الهجرة لاجلهم فيبين سبحانه ان امر الدين مقدم على النسب، واذا وجب قطع قرابة الابوين فالاجنبي اولى»<sup>44</sup> .

خامساً: تنظيم الثروة المالية عند المسلمين: وفيها قوله: (... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)<sup>45</sup> . ودلالاتها على وجوب اداء زكاة المال، فان لم تؤدّ زكاتهم فهو كنز.

<sup>37</sup> (سورة التوبة: آية 14).

<sup>38</sup> (سورة التوبة: آية 29).

<sup>39</sup> (سورة التوبة: آية 36).

<sup>40</sup> (سورة التوبة: آية 41).

<sup>41</sup> (سورة التوبة: آية 123).

<sup>42</sup> (سورة التوبة: آية 11).

<sup>43</sup> (سورة التوبة: آية 23).

<sup>44</sup> («مجمع البيان» ج 5 ص 25).

<sup>45</sup> (سورة التوبة: آية 34 - 35).

سادساً: وصف حال المنافقين: في مواضع منها:

أ - يطلبون من رسول الله (ص) الاذن في القعود عن الجهاد، بالمعاذير الفاسدة. وفيه قوله تعالى: (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليهم بالمتقين. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون)<sup>46</sup>. وهؤلاء المنافقون يستأذنونك تملقاً، ويتوقعون الاذن لشكهم في دين الله، ولو كانوا مخلصين لوثقوا بنصر الله عز وجل. وقال في موضع آخر: (إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون)<sup>47</sup>. وفي الآية ادانة للمنافقين الذين طلبوا الاذن من رسول الله (ص) للقعود، وهم مع ذلك اغنياء متمكنون من الجهاد في سبيل الله وقادرون على نفقة الخروج وآلة السفر.

ب - عدم استعدادهم للخروج للحرب: وفيها قوله: (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل أقعدوا مع القاعدين)<sup>48</sup>. فهؤلاء المنافقون لو كانت لديهم الرغبة في جهاد الكفار كما اراد المؤمنون ذلك لاستعدوا للخروج واخذوا اهبة الحرب من الكراع والسلاح.

ج - التوسل بمختلف الاعذار من اجل عدم الخروج: وفيها قوله: (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وأن جهنم لمحيطة بالكافرين)<sup>49</sup>. وهي بعض اعذارهم في القعود عن الجهاد، حيث كانوا يزعمون انهم ربما يفتنون بنساء الروم. وقوله عز وجل: (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون)<sup>50</sup>. وتلك وسيلة اخرى من وسائل عدم الخروج وهو طلب الراحة والدعة والعدول عن تحمل المشاق في طاعة الله، وعدم الخروج في الحر.

د - يتظاهرون انهم من المؤمنين ولكنهم ليسوا كذلك: وفيها قوله: (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون)<sup>51</sup>. وفيها اظهر تعالى سراً من اسرارهم، فهؤلاء المنافقون يقسمون بأنهم مؤمنون ولكنهم ليسوا بمؤمنين. ولكنهم يخافون القتل والاسر ان لم يظهرُوا الايمان.

(<sup>46</sup>) سورة التوبة: آية 44-45.

(<sup>47</sup>) سورة التوبة: آية 93.

(<sup>48</sup>) سورة التوبة: آية 46.

(<sup>49</sup>) سورة التوبة: آية 49.

(<sup>50</sup>) سورة التوبة: آية 81.

(<sup>51</sup>) سورة التوبة: آية 56.

هـ - طعنهم في امر الصدقات وبخلهم: وفيها قوله عزّ من قائل: (وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)<sup>52</sup>. والمعنى ان منهم من يعيبك يا محمد في امر الصدقات، فان اعطوا من تلك الصدقات رضوا واقروا بالعدل، وان لم يُعطوا منها كانوا ساخطين وغاضبين عليك. وقوله تعالى في بخلهم: (وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لئن آتانا مِن فَضْلِهِ لنصدقنَّ وَلَنكوننَّ مِنَ الصّٰحِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ)<sup>53</sup>. وفي الآية دلالة على صنفٍ من المنافقين ممن عاهد الله لئن رزقه ليتصدقن على الفقراء، ولكن ما ان فاض رزق الله عليه حتى شحّت نفسه عن الوفاء بالعهد، فبخل عن اعطاء الزكاة.

وقوله في المنافقين الذين يعيبون المؤمنين ذو الدخل القليل: (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)<sup>54</sup>. وهؤلاء المنافقون كانوا يعيبون المؤمنين الذين لا يجدون الا القليل ليتصدقوا به، وكانوا ايضا يعيبون المُكثِر بالرياء والمقلّ بالاقبال.

و - بعضهم أولياء بعض: وفيها قوله: (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)<sup>55</sup>. وفيها دلالة على ان بعضهم مضاف الى بعض في الاجتماع على النفاق والشرك. فهم يأمرون بالشرك والمعاصي وينهون عن الافعال الحسنة التي امر الله بها، ويمسكون اموالهم عن انفاقها في طاعته ومرضاته عزّ وجلّ.

## 2 - الاستنتاج:

اذن، نستقرئ من سورة التوبة (براءة) معانٍ ضخمةٍ في البراءة من المشركين، ومقاتلتهم بقوة وجدّ، والنهي عن موالاتهم. ونستقرئ منها ايضاً حال المنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالدين والايمان وهم ليسوا كذلك. وتلك المعاني الضخمة لا يستطيع حملها الا رسول الله (ص) او رجل منه، كما قال (ص) ذلك. فاذا اضفنا ذلك الى بطولة الامام (ع) ودوره الحاسم في قتال المشركين وبلاغة منطقته وعلو شأنه في الدين، لتبين لنا انه كان البديل الوحيد لرسول الله (ص) في تبليغ تلك السورة المبعثرة المَشَقَّقَة الحافرة، بكل قوة، في مكة. فهو لا يخاف مشركاً ولا كافراً ولا شجاعاً ولا فارساً ولا راجلاً، بل انه ارعب في ساحات

(<sup>52</sup>) سورة التوبة: آية 58.

(<sup>53</sup>) سورة التوبة: آية 75 - 76.

(<sup>54</sup>) سورة التوبة: آية 79.

(<sup>55</sup>) سورة التوبة: آية 67.

الوغى ابطال المشركين وقتلهم شرّ قتلة. وكان اطهر الناس بعد النبي (ص) وأكثرهم خشوعاً وتعلقاً بالله سبحانه وأكثرهم زهداً وتعففاً عن الدنيا.

ولذلك كان علي (ع) ابلغ المؤمنين في توصيل سورة (براءة) الى عالم ذلك الزمان، من اجل ايقاع اقصى التأثير بهم، ليؤمنوا وتخشع قلوبهم لذكر الله سبحانه.

## الفصل التاسع عشر

### نظرة شاملة لحروب الامام (ع) مع النبي (ص)

القتال في القرآن الكريم\* المعارك الكبرى\* الغزوات الثانوية\* آثار شجاعة علي (ع) على المجتمع الاسلامي\* نظرة تحليلية لحروب الإمام (ع) يجنب النبي (ص): 1- وظائف الحرب. 2- خصائص الحرب الناجحة. 3- فلسفة الحرب والسلام. 4- الشجاعة وآليات العقل والعاطفة: أ- شجاعة المعصوم (ع): حالة عقلية. ب- شجاعة المعصوم (ع): صفات اخلاقية وليست عدوانية. 5- سيف علي (ع) وتحقيق اهداف الردع.

## القتال في القرآن الكريم

ومن اجل اعطاء نظرة متكاملة عن الدور القتالي للامام (ع) في حفظ الاسلام، كان لابد من دراسة آيات القتال في القرآن . فقد تناول القرآن الكريم مسألة القتال بكثير من العناية والاهتمام باعتباره وسيلة من وسائل نشر الدين الحنيف ودحر الكفر والباطل. وسوف نعرض لهذا الموضوع لما فيه من الارتباط الوثيق بحروب الامام (ع) وشرعيتها واحلاقيتها. ويمكن تصنيف الآيات الواردة في القتال الى اربعة اصناف. الاول : في وجوب القتال. الثاني : في شرائطه. الثالث : في صفة القتال. الرابع : بين الحرب والسلم.

### الصنف الاول : وجوب القتال

كان النبي (ص) مدة اقامته بمكة غير مأذون في القتال. فلما هاجر الى المدينة أُذن له في قتال من يقاتله من المشركين، ثم أُذن له في قتال المشركين عامة. وفي هذه المجموعة من الآيات انتخبنا اربعة آيات مباركات فيها دلالة ظاهرة على فرض الجهاد والقتال، وقد ذكرنا خصوصيات كلاً منها في مواضعها. وهي :

1- قوله تعالى : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين)<sup>56</sup> . وقد نزلت هذه الآية في صلح الحديبية. وذلك ان رسول الله (ص) لما خرج هو واصحابه في العام الذي ارادوا فيه العمرة وكانوا ألفاً واربعمائة، فصاروا حتى نزلوا الحديبية، صدّهم المشركون عن البيت الحرام. فحروا الهدى بالحديبية ثم صالحهم المشركون على ان يرجع من عامه ويعود العام القابل ويخلوا له مكة ثلاثة ايام فيطوف بالبيت ويفعل ما يشاء. فرجع عندها الى المدينة.

ولما اقبل موسم الحج في السنة اللاحقة تجهز النبي (ص) واصحابه لعمرة القضاء، لكنهم خافوا ان لا تفي لهم قریش بذلك وأن يصدّوهم عن البيت الحرام ويقاتلوهم. وكان رسول الله (ص) يكره قتالهم في الشهر الحرام في الحرم. فانزل الله تعالى هذه الآية. وعن الربيع بن انس وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم ان هذه الآية هي اول آية نزلت في القتال. فلما نزلت كان رسول الله (ص) يقاتل من قاتله، ويكفّ عمن كفّ عنه، حتى نزل قوله تعالى : (فاذا انسلك الشهر الحرام فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)<sup>57</sup> فنسخت هذه الآية.

ودلالته على القتال ظاهرة، وتُحمّل الآية على العموم الا ما اخرجه الدليل. وفيها ايضاً دلالة على حرمة الاعتداء ومجاوزة الحد. وآية (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم...) <sup>58</sup> ناسخة لآية (الم تر الى الذين

<sup>56</sup> سورة البقرة: الآية 190.

<sup>57</sup> سورة التوبة: الآية 5.

<sup>58</sup> سورة البقرة: الآية 190

قيل لهم كفّوا ايديكم واقموا الصلاة...<sup>59</sup> . كما ان آية (واقتلوهم حيث ثقفتموهم)<sup>60</sup> ناسخة لآية (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم)<sup>61</sup> .

2- قوله تعالى : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)<sup>62</sup> . ودلالته على ان فرض الجهاد والقتال، بما فيها من دم وجرح وقتل، تكرهه طبيعة النفس الانسانية التي تميل الى الدعة والراحة. ولكن ما تنفر عنه النفس قد تكون فيه فائدة وخير في عاقبة الامر. والقتال يتضمن احدى الحسنين اما الظفر والغنيمة واما الشهادة والجنة.

واجمع المفسرون، عدا من شذ، بان هذه الآية دالة على وجوب الجهاد وفرضه على سبيل الكفاية، فلو قعد الناس عنه اثماً به وإن قام به من في قيامه كفاية وغنى سقط عن الباقيين<sup>63</sup> . وفيها ايضاً دلالة على ان الاحكام في الاسلام تابعة للمصالح الاجتماعية والشخصية للمكلفين، وإن خفيت عن انظار الناس وعقولهم.

3 — قوله تعالى : (يستلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قتل كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يردد منكم عن دينه فيمته وهو كافر فاولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، واولئك اصحاب النار، هم فيها خالدون)<sup>64</sup> .

والسائلون هم اهل الشرك على جهة العيب للمسلمين باستحلالهم القتال في الشهر الحرام. وقد روي ان رسول الله (ص) بعث عبد الله بن جحش على سرية، قبل قتال بدر بشهرين. فترصدوا لقافلة من قريش وقتلوا نفراً منهم وأسروا آخرين واستاقوا العير الى المدينة وفيها تجارة من الطائف، ولكن النبي (ص) ابي ان يأخذ منها شيئاً. فركب وفد كفار قريش حتى قدموا على النبي (ص) فقالوا : أيجل القتال في الشهر الحرام «وهو رجب» ؟ فانزل الله هذه الآية. وعندها قسم النبي (ص) هذه الغنيمة على المقاتلين بعد ان عزل منها الخمس.

ومعنى الآية أنهم كانوا يسألون النبي (ص) عن القتال في الشهر الحرام وعند المسجد الحرام، فاجابهم

<sup>59</sup> سورة النساء: الآية 77.

<sup>60</sup> سورة البقرة: الآية 191

<sup>61</sup> سورة الاحزاب: الآية 48.

<sup>62</sup> سورة البقرة: الآية 216.

<sup>63</sup> مجمع البيان- الطبرسي ج 1 ص 549.

<sup>64</sup> سورة البقرة: الآية 217

تعالى عبر مخاطبته محمداً (ص) : قل يا محمد ان ذلك كبير وذنوب عظيم، ولكن الكفر بالله وصد المسلمين عن بيت الله ودينه وإخراجهم عن وطنهم مكة اعظم عند الله واكبر وزراً واعظم إثماً.

وقد عبرت الآية الشريفة عن ان (...الفتنة اكبر من القتل) ، ولفظها يوحي بان ما ارتكبه المشركون من الشرك بالله هو فتنة في الدين. وتلك اكبر من القتل، لان الفتنة تفضي الى القتل في الدنيا والى استحقاق العذاب في الآخرة.

4 — قوله تعالى : (واقبلوهم حيث ثقتموهم<sup>65</sup> واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه. فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فان انتهوا فان الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين)<sup>66</sup>.

والآيات الشريفة ناظرة الى كيفية القتال مع المشركين من حيث النهي عن ابتدائهم بقتال او قتل في الحرم حتى يبتدئ المشركون بذلك، مسمية الكفر «فتنة». لانه اعظم من القتل فهو يؤدي الى الهلاك. ولذلك ورد في الاخبار قوله (ص) : لا يجتمع في جزيرة العرب دينان<sup>67</sup>.

وبينت تلك الآيات ايضاً غاية وجوب القتال، وهي : محاربة الشرك او «الفتنة» حتى تكون الطاعة لله والانقياد لامره، حتى يظهر الاسلام على العالم باجمعه. والآية محمولة على الغالب، فان قتالهم لا يزيل الكفر رأساً. بل ان كل فرد يُقتل يُزال كفره. ففي هذه الآية اوجب قتالهم حيثما وجدوا وادركوا في الحل او الحرم، سواء قاتلوا او لم يقاتلوا<sup>68</sup>، واوجب اخراجهم من مكة. وبها استدل الفقهاء على عدم جواز إسكان المشركين مكة.

### الصف الثاني : في شرائط القتال

وفي القتال شرائط منها : القدرة على الجهاد بالنفس والمال، وضرورة مقاتلة الاقرب فالاقرب من الكفار، والصبر في ساحة المعركة، وحرمة الفرار وقت الزحف. وتفصيلها:

1- شرط القدرة على الجهاد : وفيه قوله تعالى : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم).

<sup>65</sup> ثقفته أنفقه ثقفاً وثقافة اي وجدته، ومنه قولهم رجل ثقف أي يجد ما يطلبه. وحيث ثقفتموهم: اي وحيث وجدتموهم.

<sup>66</sup> سورة البقرة: الآية 191-193.

<sup>67</sup> أخرجه مالك في (الموطأ) بالرقم 1717 كتاب دعاء المدينة ج 4 ص 233 شرح الزرقاني.

<sup>68</sup> مسالك الافهام الى آيات الاحكام- الفاضل الجواد ج2 ص 321.

ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزناً الا يجدوا ما ينفقون. انما السبيل على الذين يستأذنونك وهم اغنياء رضوا بان يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون<sup>69</sup>.

وفي تلك الآيات دلالة على عدم وجوب الجهاد على الضعفاء من اصحاب العجز والنقص التكويني، والمرضى، والذين ليس معهم نفقات الخروج وآلة السفر. ومفهوم الآية هو وجوب الجهاد على القادرين جسدياً ومالياً على تحمل اعبائه.

وقيل ان الآية نزلت في البكائين<sup>70</sup> وهم سبعة نفر من الفقراء لم يجدوا مالاً يساعدهم على الجهاد مع رسول الله (ص).

**2 — وجوب مقاتلة الاقرب فالاقرب اليهم من الكفار:** وفيه قوله تعالى: (ياايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلوونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين)<sup>71</sup>. ومعنى الآية الشريفة هو الامر بمقاتلة الكفار بقتال الاقرب منهم فالاقرب، فلا يجوز التخطي عنه الى الابد لان ذلك يؤدي الى الضرر. واستدل بعض الفقهاء<sup>72</sup> على وجوب دفاع اهل كل ثغر عن انفسهم، اذا خافوا على بيضة الاسلام. ووجه الدلالة في ذلك إطلاق الامر بالقتال من غير تقييد.

**3 — الصبر في ساحة المعركة:** وفيه قوله تعالى: (ياايها النبي حرّض المؤمنين على القتال، ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفاً من الذين كفروا بانهم قوم لا يفقهون. الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين)<sup>73</sup>.

ودلالاتها مصابرة المقاتل المسلم امام عشرة من المقاتلين المشركين، ووعده عز وجل بانهم ان صبروا غلبوا بعون الله وتأييده. واذا وقع العكس، فان ذلك يدل على فقدان الشرط وهو عدم الصبر عند المسلمين. ذلك ان الكفار جهلة بالله واليوم الآخر لا يستحقون الا الهوان والخذلان، ولا يثبتون ثبات المؤمنين الذين يطلبون رجاء الله سبحانه سواء قتلوا او قُتلوا.

وكان الحكم بوجوب ثبات العشرين للمائتين، والمائة للالف في مبدأ الاسلام، ولكن ذلك شق على

<sup>69</sup> سورة التوبة: الآية 91-93.

<sup>70</sup> مجمع البيان - ج 5 ص 91.

<sup>71</sup> سورة التوبة: الآية 123.

<sup>72</sup> مجمع البيان - ج 5 ص 91.

<sup>73</sup> سورة الانفال: الآية 65-66.

المسلمين لضعف مصابرتهم وبصيرتهم، فُنسخ عنهم بقوله تعالى: (الآن خفف عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً)، فاصبح الحكم الجديد هو وجوب ثبات المائة الصابرة امام المائتين وغلبيتها، والالف امام الالفين. فتحول الحكم من حتمية انتصار جيش من المسلمين الصابرين حجمه عشرة بالمائة من جيش العدو، الى حتمية انتصار جيش من المسلمين الصابرين حجمه خمسين بالمائة من جيش العدو بشرط المصابرة.

**4 — حرمة الفرار وقت الزحف:** وفيه قوله تعالى: (ياايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار ومن يؤلّهم يومئذ دُبره الا متحرفاً لقتال او متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأويه جهنم وبئس المصير)<sup>74</sup>. وفيها دلالة على تحريم الفرار وقت الزحف. والزحف هو الدنو من قبل الطرفين المتحاربين من اجل الالتحام قتالياً. الا ان يكون تغريراً للعدو بالكرّ بعد الفرّ، بان يخيّل للعدو انه منهزم عنه ثم يعطف عليه فانه من مكائد الحرب، او الاستنجاد بفئة اخرى من المسلمين وهو ما يسمى بالانحياز الى فئة. وعلى اية حال، فان الفرار من المعركة قد (بَاء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) وهو وعيد عظيم بخصوص العقوبة الآخروية على جريمة الفرار من ساحة القتال مع المشركين.

#### الصنف الثالث : في صفة القتال

فطالما كانت الحرب قائمة، فان الكافر يُقتل حال المحاربة. ولكن اذا انتهى القتال تبدأ عملية الاسر. فيكون الحكم في صفة القتال هو : "وجوب القتل اذا أخذ الكفار حال المحاربة، والاسر بعد انتهاء القتال". وفيه قوله تعالى : (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما مناً واما فداءً حتى تضع الحرب اوزارها)<sup>75</sup>. ومقتضى الآية الشريفة وجوب قتل المشركين اذا اخذوا حال المقاتلة والمحاربة. ويعبر لفظ «ضرب الرقاب» عن القتل. و«الإثخان» عن كثرة قتلهم. وعندها، حين يتم استسلامهم، ينبغي اسر الباقين منهم واطلاق سراحهم لاحقاً اما من غير فداء واما بقدية مالية يدفعها الاسير. ومقتضى الآية التخيير بين الامرين بعد انقضاء الحرب. واثبت الفقهاء الاسترقاق ايضاً، فاصبح التخيير بين الثلاثة لقيام الدليل عليه من خارج. ولاشك ان الحرب تنقضي بتلك الصورة فلا يبقى الا مسلم او مسلم.

ولذلك قال الشاعر :

وأعددت للحرب أوزارها \*\*\* رماحاً طوالاً وخيلاً ذكوراً

<sup>74</sup> سورة الانفال: الآية 15 - 16.

<sup>75</sup> سورة محمد: الآية 4.

## الصف الرابع : بين الحرب والسلم

وحدد القرآن الكريم اصناف الذين ينبغي محاربتهم، وهم : المشركون، واهل الكتاب الذين لا يجرّون ما حرّم الله ورسوله حتى يعطوا الجزية. وحدد ايضاً طبيعة السلم والهدنة اذا دعت الحاجة الى ذلك.

### 1 – المَعْبُودُونَ بِالْمَقَاتِلَةِ :

أ- اهل الكتاب الذين لا يجرّون ما حرّم الله ورسوله: وفيه قوله تعالى: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يجرّون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)<sup>76</sup>. وهذه الآية صريحة في ان اهل الكتاب الذين تؤخذ منهم الجزية لا يؤمنون بالله واليوم الآخر. فهم بمنزلة المشركين في عبادة الله تعالى بالكفر. وهؤلاء لا يجرّون ما حرّم الله ورسوله اي موسى وعيسى (ع) وهم يزعمون متابعتهم. وقد قال تعالى في موضع آخر عن اليهود بانهم (...يجرّفون الكلم عن مواضعه...)<sup>77</sup>.

ب- المشركون: وفيه قوله تعالى في آيتين. الاولى: (...وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة...)<sup>78</sup>. والثانية: (فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم...)<sup>79</sup>. الآية الاولى دعت المؤمنين الى قتال المشركين جميعاً مؤتلفين غير مختلفين، ودعتهم ايضاً الى عدم التمسك منهم بعهد ولا ذمة الا من كان من اهل الجزية واعطاها عن صغار. الآية الثانية امهلت المشركين مدة معينة وهي مدة انقضاء الاشهر الحرم، وبعدها يوضع فيهم السيف إن كانوا في الاشهر الحرم او في غيرها، في الحل او في الحرم. وهذه الآية ناسخة لكل آية وردت في الصلح او الاعراض عنهم.

### 2 – السلم :

وفيه قوله تعالى: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم)<sup>80</sup>. وفيها دلالة على جواز الهدنة، وهي المعاهدة على ترك الحرب ووضع اوزارها مدة معينة بعوض او بدون عوض. خصوصاً اذا كانت الحاجة تدعو الى المهادنة لضعف المسلمين عن المقاومة او غير ذلك. وقد روى الجمهور ان

<sup>76</sup> سورة التوبة: الآية 29.

<sup>77</sup> سورة النساء: الآية 46. وسورة المائدة: الآية 13.

<sup>78</sup> سورة التوبة: الآية 36.

<sup>79</sup> سورة التوبة: الآية 5.

<sup>80</sup> سورة الانفال: الآية 61.

النبي (ص) صالح سهيل بن عمرو على وضع القتال عشر سنين<sup>81</sup>.

### المعارك الكبرى

وقد كان حثّ القرآن الكريم على القتال والجهاد، بما فيها من دم وجرح وقتل، مدعاة لنشوء معارك كبرى خاضها الاسلام ضد الشرك. وكانت معارك بدر الكبرى، وأحد، والخندق، وخيبر، وذات السلاسل، وحُين معارك كبرى بلحاظ النتائج المتمخضة عنها والآثار التي سببتها. وكان من آثارها ردع العدو الذي تمثّل بفتح مكة دون سفك دماء، وتبوك حيث دُفعت الجزية وتمت المصالحة عليها. وهكذا أدّت الشجاعة العظمى وحب لقاء الله بالموت على فراش الاستّة، دورها الحقيقي في نشر الاسلام بين الناس وتثبيت اسس الدين في المجتمع الانساني.

### الغزوات الثانوية

وما ذكرناه كان يحمل حروب الامام (ع) مع النبي (ص)، ولاشك ان علياً (ع) شارك في غزوات اخرى بقيادة رسول الله (ص) وقتل فيها ابطال المشركين، كغزوة بني النضير، وغزوة بني المصطلق، وغزوة وادي القرى، وغزوة الطائف. ولكن المقاومة في تلك الغزوات كانت ضعيفة، وكان العدو يستسلم في الجولة الاولى من المعركة. فكانت حروباً ثانوية من هذا المنظار.

### آثار شجاعة علي (ع) على المجتمع الاسلامي

ان اهم آثار شجاعة الامام (ع) في الحروب التي خاضها مع رسول الله (ص) خلال مراحل تكوين الدولة الاسلامية وتثبيتها، هو نقل المجتمع الاسلامي من مجتمع محلي الى مجتمع عالمي له قانون ونظام وادارة تستطيع قيادة العالم. فقد برز الاسلام قوة عالمية بعد المعارك التي خاضها محمد المصطفى (ص) جنباً الى جنب مع علي المرتضى (ع). وبعد الانتصارات التي تحققت في بدر وخيبر وذات السلاسل وفتح مكة وتبوك، برز الجيش الاسلامي واحداً من اقوى الجيوش في العالم القديم. وبذلك تراكمت لديه الخبرات العسكرية والمعدات اللازمة التي تهيأه للحروب الكبرى مع الروم والفرس، والسيطرة على التجارة العالمية، ومن ثم صياغة النظام السياسي العالمي.

ولو نُفِذت وصية رسول الله (ص) في يوم الغدير بتسليم الولاية لعلي (ع) بعد وفاة رسول الله (ص)،

<sup>81</sup> الام - الشافعي ج 4 ص 189 المهادنة عام الحديبية عشر سنين. والسنن الكبرى - البيهقي ج 9 ص 221 باب ما جاء في مدة الهدنة رواه عن مروان بن الحكم ومسور بن مخزومة.

لأثرت تلك الجهود في دولة اسلامية عالمية واحدة. ولكن الاطماع شاءت ان تغير مسار التاريخ فتسلّم مقاليد الادارة الاجتماعية للمجتمع الاسلامي اناسٌ لا خبرة لهم بذلك.

ومع كل ذلك، فان الفتوحات التي تمّت خلال عهدي الخلفيتين الاول والثاني وما بعدهما كانتا من ثمار شجاعة علي (ع) وبطولته النادرة في ساحات المعارك التي شهدها. فقد كانت المعارك الكبرى السابقة قاعدة لتحديد مستقبل النظام السياسي العالمي المستند على الاسلام. وطبيعة الحروب التي تغير التاريخ تبدأ محلية او اقليمية محدودة ثم تتوسع لتكون عالمية الاتجاه والمصير.

وبكلمة، فان ما استفاده خلفاء بني امية وبني العباس من اراضي دولة واسعة يسيطر عليها المسلمون، كان بفضل سيف علي بن ابي طالب (ع) وجراحاته في الحروب التي خاضها مع رسول الله (ص). فقد حوّلت تلك الحروب والمعارك الشرسة الامارات والقرى الكافرة الى مساحة دولة واسعة تعجّ بالمسلمين واقتصادهم المزدهر في الزراعة والصناعة والتجارة.

وحتى عندما تخلى علي (ع) عن المشاركة في المعارك بعد وفاة رسول الله (ص) لاسباب سنذكرها لاحقاً، وانتقال الحكم الى قريش مرة اخرى، فانه (ع) كان قد هياً الاجواء الاجتماعية للقتال. وليس من اليسير ان تنقطع تلك التهيئة ويموت ذاك الشعور بمجرد غيابه عن الساحة القتالية. بل بقيت روح علي (ع) وشجاعته رمزاً في كل المعارك التي وقعت بعده.

ان اهم اهداف المعارك الاسلامية هو السيطرة على النظام السياسي والاجتماعي للعالم على ضوء احكام الشريعة. ومن هنا كان اهم اثر للمعركة بين الايمان والكفر هو تغيير المنظومة الفكرية والتعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية للطرف المنهزم. ولذلك كان الاسلام حريصاً على الانتصار في كل مرة، لان الهزيمة كانت تعني انكسار شوكة الايمان وسيطرة الكفر على العالم مرة اخرى. وبذلك ينتفي دور الدين الجديد في الحياة الانسانية.

ومن هنا نلاحظ اهمية وجود علي (ع) بطلاً رائداً من ابطل الاسلام المقاتلين في سبيل الله تعالى، الدابيين عن حرم الرسالة السماوية وقائدها محمد (ص).

فقد قلب علي (ع) التوازن القائم بين الاطراف المتحاربة عبر زعزعة المسلّمات التي كانت تقوم عليها الحروب مثل: المخاطرة في مبارزة الفرسان، او العجز عن اقتحام الاسوار والابواب الضخمة، او العجز عن قلع الصخور العظيمة، او العجز عن الصمود امام سيول المقاتلين المتدفقين على ساحات القتال. وقد قلب علي (ع) تلك المسلّمات بمبارزة الفرسان الذين يشهد لهم بالشجاعة وقتلهم كعمرو بن عبد ود ومرحب وابو جرول وغيرهم، وقلع الابواب العظيمة كباب خيبر، وقلع الصخرة العظيمة من اجل اكتشاف بئر للماء

يشرب منها الجنود، وحماية رسول الله (ص) في أحد وحين، وارعاب العدو في ذات السلاسل. فكان من مقتضيات قلب ذلك التوازن هو بروز الايمان قوة عظيمة على الساحة العالمية، وانحسار قوى الشرك بشكل تدريجي.

### نظرة تحليلية لحروب الامام (ع) مع النبي (ص)

اتصف الامام (ع) بالشجاعة الفائقة، فقد قال الروح الامين فيه وفي سلاحه: «لا سيف الا ذو الفقار، ولا فتى الا علي»<sup>82</sup>، وقال عن نفسه: «لو تظاهرت العرب على قتالي ما وليتُ مدبراً»<sup>83</sup>، و«إن اكرم الموت القتل! والذي نفسُ ابنِ ابي طالب بيده لألفَ ضربة بالسيف أهونُ من ميتة على الفراش في غير طاعة الله»<sup>84</sup>. وهو الذي ما فرّ من حرب ابداً، ولا بارز احداً الا قتله او اسره او منّ عليه بعد ان تمكن منه، ولا ضرب ضربة فاحتاج الى ثانية فان ضرباته كانت وترّاً، واذا علا قدّاً، واذا اعترض قط. وقد قتل في بدر وأحد من يعدُّ بالف فارس. وضرب عمرو بن عبد ود على ساقيه فبراهما مع ما عليهما من الحديد، وضرب مرحباً على رأسه وكان عليه مغفر وحجر فقدّ الحجر والمغفر والرأس حتى وقع السيف في اضراسه.

وبات قبل ذلك على فراش النبي (ص) وهو يرى ان يقتل غدراً فانزل تعالى فيه: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله...)<sup>85</sup>. وفي بدر قتل من المشركين النصف، وقتل المسلمون جميعاً النصف الآخر. ويوم أحد قتل ثمانية عشر فارساً، وجيش المسلمين كله قتل عشر فوارس. وفي حنين قتل بطل المشركين ابا جحول مع تسع وثلاثين فارساً.

وقال (ع): لا حاجة لي بالفرس، انا لا افرّ ممن يكرّ، ولا اكرّ على من يفر. كان علي (ع) الغالب دائماً، مع ان الناس يغلبون احياناً ويُغلبون احياناً اخرى. وكان العرب يتفاخرون بان مقتولهم كان بسيف علي (ع)، لان من يبارز علياً (ع) لا بد ان يرى الموت.

لقد صبّ الامام (ع) شجاعته من اجل الاسلام، وفي سبيل الله خالصة دون اي مطامع دنيوية. ولذلك فقد كان عدو المشركين الاول بعد رسول الله (ص). وبكلمة، فقد كان علي (ع) رفيق النبي محمد (ص) في كل جهاد ونصر على الكافرين وكان شريكه في كل جرح ومعاناة في سبيل الله سبحانه. ذلك ان سيف علي (ع) ترك آثاراً عميقة في المجتمع الاسلامي، كما تركت كلمات رسول الله (ص) وسيرته

<sup>82</sup> تاريخ الطبري ج 2 ص 501-514.

<sup>83</sup> فتح البلاغة - كتاب 45 الى عثمان بن حنيف الانصاري ص 534.

<sup>84</sup> فتح البلاغة - خطبة 122 ص 220.

<sup>85</sup> سورة البقرة: الآية 207.

آثارها العميقة عليهم.

ومن هنا قيل ان كل حرب لا تحمل الآثار المتوقع حملها، لا يمكن ان تعدُّ حرباً مؤثرة. اي ان قيمة الحرب تُحدد بمقدار التبعات التي تنتجها في النظام الاجتماعي ومقدار التغيرات التي تحدثها في التركيبة الدينية للطرف المنهزم. وبالأجمال، ان تفسير اسباب الحرب يرجع بالدرجة الاولى الى فهم وظيفة تبعات المعركة الحربية من حيث التغيير في تركيبة المجتمع وتبديل صورة النظام الاجتماعي.

## 1 - وظائف الحرب:

ومن هنا نفهم ان للحرب وظيفتين حاسمتين :

الاولى: ان الحرب تهدد استقرار النظام الاجتماعي والديني للطرف المنهزم. فاذا هزم المسلمون فان تركيبة نظامهم الديني ستتخطم امام قوى الشرك. واذا هزم المشركون فان تركيبة نظامهم الديني الوثني ستتخطم امام قوى الايمان. وهذا يعني ان الهزيمة قاسية جداً على صعيد المباني العقائدية، ايماناً كان او كفراً.

الثاني: ان تبعات الحرب الايجابية تمنح الطرف المنتصر فرصة للتغيير الاجتماعي والسياسي والديني على الطرف المنهزم. ولذلك فان انتصار الاسلام كان امراً لا بد منه، لان اي هزيمة كانت تعني نهاية الاسلام، او عدم قدرته على التغيير الاجتماعي على اقل التقادير. وبذلك ينتفي دور الدين في العالم.

وعلى ضوء تلك الافكار ندرك دور علي (ع) البطولي في المعارك يوم كان يفر فيه من يفر، لان علياً (ع) كان يحوّل المعركة - بسلوكه الحربي الفريد - من هزيمة نفسية للمسلمين الى انتصار ساحق على العدو المشترك. وبذلك كان وجوده البطولي وجوداً حاسماً من اجل انتصار الاسلام. فلاشك ان يقول له رسول الله (ص): «ضربة علي (ع) يوم الخندق اعظم من عمل الثقلين»<sup>86</sup>، و«برز الايمان كله الى الشرك كله»<sup>87</sup>، و«سوف اعطي الراية غداً لرجل كرام غير فرار». وبكلمة، فان امير المؤمنين (ع) احيا الاسلام ببطلته وشجاعته الفريدة، وكان قادراً على تغيير موازين القوى العالمية في عصر السيف بحيث كان يمهد الطريق نحو دولة اسلامية شرعية تحكم العالم بما انزل الله تعالى. وحتى ان فتح فارس والروم كان بفضل بذرته التي غرسها في نفوس المقاتلين، مع انه لم يشارك فعلاً في الفتح والتحرير الا انه شارك في التربية والمثل الاعلى في القتال. فبرز الاسلام قوة عالمية وحيدة تنازع الشرك العالمي والوثنية.

وكان رسول الله (ص) عندما يخرج في معاركه ضد الشرك والى جنبه الامام (ع)، يرى - بالاضافة

<sup>86</sup> المواقف - الايجي ج 8 ص 371.

<sup>87</sup> بنايع المودة ص 94 - 95.

الى الوعد الالهي - احتمالية عقلانية لنصر حاسم على العدو. ذلك لان النصر الحاسم يعني بروز سلطة دينية عالمية تستطيع تغيير النظام السياسي والاجتماعي في العالم. ولو لم يكن ذلك الاحتمال موجوداً لما كان في الخروج تبريراً عقلائياً يدعو الى ذلك الحجم من التضحية والخسائر.

والقيمة الاخلاقية التي نستطيع ان نستلهمها من بطولة علي (ع) في المعارك الدموية ضد الشرك، تبلورت في نتائج تلك الحروب. فالنتائج كانت تكشف لنا بوضوح عن انتشار الاسلام على الارض بشكل سريع. فقد قلب امير المؤمنين (ع) مفهوم الامر الواقع في عالم حاول المشركون وعبدة الاوثان بكل جهد تثبيته، عبر خنق بذرة الاسلام قبل ان تورق على الارض.

## 2 - خصائص الحرب الناجحة :

امتلكت الحروب التي خاضها الاسلام ضد الشرك خصائص فريدة جعلها من انجح الحروب العقائدية في تاريخ البشرية. فالحرب في الاسلام كانت ممارسة عقلية لتثبيت الايمان ودحر الشرك. وكان الاسلام هو المنتصر دائماً، معنوياً او مادياً. فمن خصائص الحرب الاسلامية :

اولاً : ان الصراع العسكري واللفظي كانت تشارك فيه شخصيات من الطراز الاول في القيادة وهي شخصيتنا رسول الله (ص) وعلي بن ابي طالب (ع). ولذلك كان النصر او الهزيمة، والجرح او القتل يُمسّ القيادة مباشرة. وهذا عامل مهم من عوامل الحرب الناجحة، لان وجود القائد او البطل يُلهم المقاتلين الصبر والثبات ويمنحهم المبرر الاخلاقي للقتال ويعطيهم الامل في الانتصار. ووجود القيادة على ساحة المعركة، يجعل التحدي للطرف المقاتل اقوى واعنف.

ثانياً : ان الحرب الناجحة تتطلب مشاركة فعالة من قبل كل القوى الرئيسية في النظام الاجتماعي. كالقوى الفكرية والتجارية والطبية والتعليمية والقضائية والتصنيعية والزراعية. فالمعركة تحتاج الى امداد مادي وروحي وفكري. فقد كان التاجر يشارك بماله في الحرب، والمرأة تشارك في تطيب الجرحى، والمزارع يشارك في الامداد الغذائي، وصاحب الصنعة يشارك في عدّة الحرب وجهازها وهكذا. واي انتصار يُحرز في المعركة، يصبُّ في منفعة تلك القوى الرئيسية في المجتمع. والغنائم التي كانت توزع على المقاتلين المسلمين كانت تخدم النظام الاجتماعي ايضاً. ذلك لان تلك الغنائم كانت امداداً مادياً يُعينهم على الاستمرار في الجهاد ومقارعة العدو سيفاً بسيف وراحلة براحلة.

ثالثاً : ان الحرب الحقيقية الناجحة هي الحرب التي يلتحم فيها الطرفان التحاماً عسكرياً مباشراً بالقتال ; اي المبارزة والقتل والجرح وتحطيم معدّات العدو. وكلما كان القتال اشدّ، كان النصر حاسماً وسريعاً. الا ان

الحروب المحدودة التي لا تتضمن قتالاً شديداً يكون النصر فيها مؤجلاً الى معركة اخرى اكثر شدة وشراسة.

### 3 — فلسفة الحرب والسلام:

هل ان الحرب حقاً نتيجة حتمية من نتائج غياب النظام السياسي الواحد الذي ينظّم شؤون العالم؟ ربما ان الحرب اثر من آثار غياب النظام السياسي العالمي باعتبار ان اختلاف الانظمة السياسية وتناقض اهدافها تولد حروباً وصراعات مربكة لآمان المجتمعات الانسانية. ولكن الحروب - اذا جُردت من اهدافها الدينية الاخلاقية- فانها تصبح سلوكاً بشرياً من اجل السيطرة السياسية والاقتصادية من قبل الاقوياء على الضعفاء. فالشهوة نحو السلطة والرغبة في حب استعباد الناس تدفع الحكام الظالمين الى شن الحروب - في غياب نظام سياسي ديني عالمي- من اجل السيطرة، حتى لو كلف ذلك كم هائل من النفوس والدماء والاعراض.

الا ان الحرب في الاسلام تختلف في الجوهر والاتجاه عن ذلك. فهي لا تريد السيطرة على الناس، بل تريد تحرير الانسان من عبوديته لغير الله سبحانه. ولا تتوقف عند ذلك الحد بل تطمح ايضاً الى توحيد النظام السياسي العالمي كي يكون نظاماً قوياً يردع الاشرار من اقامة حرب اخرى. فالبوابة الى السلام العالمي والامان البشري هو حرب شاملة يقوم بها الدين من اجل تخليص الانسان من ظلم الاشرار وعبوديتهم. فالحرب الدينية هنا لها دور نزع فتيل الخوف والرعب والعداوة التي يزرعها الشرك في نفوس الناس. لقد أُريد من معارك بدر وأحد وخيبر وحُنين وتبوك ان تحقق نفس اهداف المعارك الدينية الاخرى. وهو نزع فتيل الشرك والوثنية من عقول الناس، وتحريرهم من عبودية الانسان الى عبودية الله الواحد.

ولكن للمعركة شروطها ومقتضياتها، فالقضية الشرطية هنا شاملة للبطولة الخارقة والتضحية وحب الموت وطاعة الجنود لقائدهم. واي اخلال بهذا المفهوم فانه يؤدي الى حرمان الدين من تحقيق اهدافه العليا في بناء النظام السياسي العالمي. واذا فشل الدين في تحقيق انتصار حاسم على الشرك، فان قضية الحرب والسلام تبقى معلّقة بيد الذين لا يرجون الا استعباد الناس والسيطرة على مقدراتهم. وبهذا اللحاظ نلمس اهمية طاعة الامام (ع) لرسول الله (ص) وشجاعته الفائقة وتضحيته الفريدة وحبه للموت بكونها عاملاً من عوامل تقريب الدين من تحقيق اهدافه عبر الانتصار على الشرك، وبناء دولة دينية مستقرة تستطيع تحقيق العدالة الحقوقية بين الناس وتثبيت الامن الاجتماعي والمعاشي لهم.

### 4 — الشجاعة وآليات العقل والعاطفة:

نقل لنا التاريخ بأمانة بان رسول الله (ص) قال عندما التقى علي (ع) بعمر بن عبد ود للمبارزة:

«برز الايمان كله الى الشرك كله»<sup>88</sup>. وهذا القول الكريم يدعونا الى دراسة الشجاعة عند المعصوم. ومحاولة الاجابة على التساؤل القائم: هل ان شجاعة المعصوم (ع) حالة عاطفية ام حالة عقلية؟

#### أ - شجاعة المعصوم (ع) حالة عقلية:

لاشك ان العواطف الانسانية تأخذ محوراً مركزياً في الطبيعة البشرية. فالعواطف البشرية تتضمن حالات مثل: الخوف، والغضب، والحجل، والحزن، والفرح، والانزعاج، ونحوها. وكل لون من الوان تلك العواطف يعدُّ حالة شخصية مؤقتة تفرز إقداماً او جنباً او قهوراً او انزواءً. فالشجاعة - عادية كانت او فائقة - اذن حالة من الحالات العاطفية التي يسقط فيها الخوف والحجل والانزعاج، ويبرز الاقدام واليقين والثبات. وفي حالات الجبن يبرز الخوف والرعب، ويسقط الإقدام واليقين.

فاذا قلنا بان فلاناً يخاف الافاعي، نستنتج بانه يتجنب الذهاب الى مكان تسكن فيه الافاعي. واذا قلنا بان زيداً يخاف المسير في الليل، نستخلص بان سفراته تتم غالباً في النهار. واذا قلنا بان فلاناً يخاف القتال، نستنتج بانه يتجنب الذهاب الى ساحة المعركة. وقد وصف القرآن الكريم قوماً اذا سمعوا قتالاً دارت اعينهم من الخوف (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلمَّ الينا ولا يأتون البأس الا قليلاً. اشحَّة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدورُ اعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت. فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد اشحَّة على الخبير اولئك لم يؤمنوا فاحبط الله اعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً)<sup>89</sup>. واذا قلنا بان فلاناً لا يتجرأ على تحدي فرسان العرب، نستنتج بانه يتجنب رفع رأسه لمنازلتهم. وفي كل تلك الحالات ينزوي الانسان الذي لا يمتلك تلك القدرة من الشجاعة عن ساحة الاحداث.

والدين الجديد الذي كان يتحدى العالم بكل ما فيه من اوثان وقوى شرك وشراسة وشر، كان بأمس الحاجة الى ابطال لا يهيبون الموت، ولا يكثرثون للنوازل، ولا يعترتهم الخوف او التردد او الانهيار. وكان ينبغي ايضاً ان تكون شجاعتهم فائقة لا شجاعة عادية مجردة من مضامينها الرسالية الاستثنائية. ولذلك كان دور امير المؤمنين (ع) حاسماً في معارك الاسلام الكبرى، لانه كان يمتلك قدراً فائقاً من الشجاعة واليقين والإقدام والثبات. فقد كان (ع) بطلاً استثنائياً وشجاعاً لا مثيل له.

فالدين لا يستقيم له حال ما لم يدعمه بطل في غاية الشجاعة والاقدام، لان الدين - باعتباره خيراً يدعو للخير- في صراع دائم مستمر مع الشر. واذا كان الصراع مستمراً، فان الشجاعة والبطولة الفائقين

<sup>88</sup> ينابيع المودة ص 94-95.

<sup>89</sup> سورة الاحزاب: الآية 18-19.

ينبغي ان تستمر ان ايضاً. لان الخوف الذي تصاحبه عوارض جسدية مثل خفقان القلب، وتيسس البلعوم، وآلام المعدة، يجعل الخائف غير قادر على التفكير فضلاً عن التركيز على عمله الحربي المكلف به. وحالة عاطفية كنتلك، لا يستقيم معها الدين.

ولاشك ان الشجاعة الفائقة — ارادية كانت او لا ارادية — متداخلة مع عوامل اخرى كالادراك والدافع والتعبير. فالبطل الشجاع ينظر للعدو المقابل على اساس انه امر يستطيع معالجته فيقترب منه ويعالجه بالضرب او الطعن او القتل. ولا ينظر له على اساس انها قضية مرعبة خطيرة ينبغي ان يتجنبها او ان يهرب منها. وهكذا كان الامام (ع)، فانه كان يُقدم على منازلة فرسان القوم لان يقينه بالله وقدرته الفائقة على مواجهتهم كانت تدفعه نحو الاقتحام والثبات وانزال الهزيمة المنكرة بالعدو. فكان مصداقاً لقوله تعالى : (ياايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا...) <sup>90</sup> ، (ياايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار) <sup>91</sup> ، (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب...) <sup>92</sup> . وقول علي (ع) في أحد : الحمد لله اذ لم افرّ ولم اولّ الدبر؛ وقوله (ص) في خيبر وهو يشير الى علي (ع) : «ساعطي الراية غداً الى رجل كرار غير فرار» تؤيدان قدرته الفائقة (ع) في الاقتحام والثبات.

وفي ضوء تلك الافكار نؤمن بان شجاعة علي (ع) كانت حالة عقلية اكثر منها حالة عاطفية. بمعنى ان شجاعته الفائقة وبطولته الخارقة كانت حالة عقلية امتزج فيها اليقين بالله وحب لقائه اكثر منها حالة جسدية او فلسفية. وتعبير ثالث ان المعصوم (ع) في الفكر والادراك يكون دائماً على درجة قصوى في الإقدام والثبات واليقين في كل الحالات والمواقف الحياتية. لانه وصل الغاية في اليقين بالله، فهو يسعى الى الموت من اجل لقاء الله سبحانه. والسعي نحوه عز وجل في كل وقت يزيل كل حالات الخوف والتردد والانزعاج والغضب لغير الله. فلا عجب اذن ان نرى شجاعة امير المؤمنين (ع) الفائقة باعيننا ونربطها بعصمته. ذلك ان الشجاعة الفائقة التي نتحدث عنها هي حالة عقلية مرتبطة بمقدار كمالية ادراك الانسان. فالمعصوم (ع) اذن، يمتلك درجة تامة من الكمال في الدين والفكر والسلوك توجه شجاعته تلك نحو وجوه الخير وتثبيت العدل ومحق الشر وتدمير الباطل في كل الاوقات.

ولاشك ان الشعور بالشجاعة يكون متوازياً عند الامام امير المؤمنين (ع) بالشعور بالعصمة، فكما ان الشعور بالغضب يكون متوازياً مع الغضب ذاته، فان الشعور بالشجاعة الفائقة تلك يكون متوازياً مع

<sup>90</sup> سورة الانفال: الآية 45.

<sup>91</sup> سورة الانفال: الآية 15.

<sup>92</sup> سورة محمد: الآية 4.

الشجاعة المتوجهة نحو عمل الخير. وشجاعة المعصوم (ع) تستبطن ايضاً قضية مهمة وهي درجة عالية من ضبط الذات عندما يتطلب الامر محاربة المشركين او الظالمين. فعلي (ع) لا يقتل الا لله، وعندما يبصق مشرك كعمرو بن عبد ود بوجه الامام (ع) لم يسارع في قتله انتقاماً لذلك، وانما يصبر قليلاً حتى تهدأ ثورة الغضب الذاتي ثم يقتله لله. وعندما كان المشركون يكشفون عوراتهم، كان (ع) يستحي ان يقتلهم على تلك الحالة. وعندما كان يظفر بهم كان يعفو عنهم لكلمة استعطاف او نداء لصلة الرحم او غير ذلك. وعندما يقتلهم كان يستحي ان يسلبهم ادواتهم التي يجاربونه بها. فشجاعة علي (ع) اذن حالة عقلية متناسبة مع كمال ادراكه للقضايا الفكرية والالزامية المتعلقة بالدين.

#### ب — شجاعة المعصوم (ع) : صفات اخلاقية وليست عدوانية

وكان فتح مكة دون اراقة دماء، ودفع العدو الجزية في تبوك، احد نتائج بطولة امير المؤمنين (ع) في المعارك التي خاضها ضد المشركين. ومن الطبيعي فان الرغبة في القتال عند الناس يمكن ان تُصوّر على اساس ان لها دوافع عدوانية شريرة. ولكن ذلك التصور لا ينطبق على بطولة علي (ع) للأسباب التالية :

اولاً : ان طبيعة التربية النبوية لعلي (ع) كانت منصبة على تعليمه طرق تمييز الخير من الشر، والحق من الباطل، والمعبود من العابد، والخالق من المخلوق. فصورة الرغبة في القتال هنا تفترض ان الحرب هي وسيلة من وسائل محق الشر وازهاق الباطل وتثبيت الخير واحقاق الحق. فالبعد الواقعي هنا ليس بُعداً عدوانياً، بقدر ما هو يقين بقدره الخير والحق على الانتصار على الشر والباطل كما اشار الذكر الحكيم الى ذلك بالقول: (...ان الباطل كان زهوقاً)<sup>93</sup> ، (ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون)<sup>94</sup> ، (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق...)<sup>95</sup> ، (قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد)<sup>96</sup> ، (...ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته...)<sup>97</sup> . فاليقين عند علي (ع) وهو في ساحة المعركة يُفرز سلوكاً عقلياً جامعاً بضرورة هدم الشرك والاحاد عبر الفرص التي يهيئها اشتباك الاسنة وتلاحم الايدي وتطاير الرؤوس.

ثانياً : ان التعامل الاخلاقي لعلي (ع) في الحروب التي ذكرناها في عرض الكتاب اكثر من مرة مثل: عدم الكرّ عندما يفرّ العدو، والصفح عن المسيء عندما يتمكن منه، وكشح الوجه عن عورات اعدائه عندما يضطرون

<sup>93</sup> سورة الاسراء: الآية 81.

<sup>94</sup> سورة الانفال: الآية 8.

<sup>95</sup> سورة الانبياء: الآية 18.

<sup>96</sup> سورة سبأ: الآية 49.

<sup>97</sup> سورة الشورى: الآية 24.

لاظهارها وقت الشدة، كلها تدلُّ على ان بطولته (ع) كانت عملية اخلاقية صاغها السلوك العقلي الديني. ثالثاً : اننا لانستطيع ان نأخذ صفة الشجاعة عند الامام (ع) بصورة منفصلة عن الصفات الشخصية الاخرى كالزهد والتقوى والتعفف عن ملاذ الدنيا الفانية. فاذا اضفنا تلك الصفات في القدرة على نبذ ملذات الدنيا - حلالها فضلاً عن حرامها- الى البطولة الخارقة، لكان العامل الشخصي المحرِّك للحرب عند علي (ع) عاملاً اخلاقياً نابعاً عن جوهر الدين في محاربة الشر والباطل بما فيه من ظلم ورذيلة وفساد. بينما لو درسنا صفة الشجاعة عند افراد مثل عمرو بن عبد ود او مرحب او ابو جرول، لتبين لنا ان تلك الصفة اتخذت صفة العدوانية لانها كانت تمثل الغرور، والتكبر، والفساد الاخلاقي، والشرك بالله سبحانه وهو اعظم الفساد.

رابعاً : ان الصور المرسومة في ذهن المؤمن - كصور الحياة الآخرة مثلاً من جنة ونعيم وملائكة وقرب من المولى عز وجل- تساهم في الاندفاع نحو القتال في ساحة المعركة. فيحكى لنا القرآن الكريم بان الله سبحانه وتعالى قد أخذ على نفسه عهداً للمؤمنين بان لهم الجنة والنعيم مقابل جهادهم المشركين والكافرين، فيقول: (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة...) <sup>98</sup>. فالصور الذهنية هنا صوراً اخلاقية ليست لها طبيعة عدوانية. فامير المؤمنين (ع) وهو يحمل تصورات عن الخالق سبحانه وتعالى والحياة الآخرة لا يمكن ان يختار غير الحرب طريقاً لتوصيل الرسالة، امام اعداء لا يفهمون الا لغة القتال، وقد قال عز وجل: (...وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة...) <sup>99</sup>.

خامساً : ان بطولة علي (ع) في المعارك الطاحنة كانت عاملاً مهماً من عوامل الردع النفسي ضد العدو، وقد اشرنا الى ذلك آنفاً وسوف نشير اليه من زاوية جديدة. وبذلك فقد ساهمت تلك البطولة في الحفاظ على دماء الناس واعراضهم، لان الردع كان يقتضي استسلام الجيش المقابل، عدا ما كان من شأن الحروب الخارجة عن القاعدة. وبذلك حفظ الاسلام الارواح والنفوس من القتل، فدخلوا في الاسلام، وانفتح لهم الطريق بعد ذلك لفهم معاني الدين دون اكراه. وكان فتح مكة من انصع الامثلة على صحة نظرية الردع في التعامل مع العدو. سادساً : ان بطولة علي (ع) لم تكن حباً في اذى الناس، ولم تكن قضية غريزية من اجل القتل والتدمير. بل كانت تلك البطولة مصممة على اساس ان ينتشر الخير والعدل بين البشر. فقد كان علي (ع) يحسن الى الفقراء ويرعاهم، ويجوع حتى يشبعوا، ويلبسهم النظيف الجديد ويلبس الرث البالي. فكيف تكون صفة الشجاعة لانسان مثله (ع) غريزة لحب القتل؟! اذن، كانت شجاعة الامام (ع) حالة عقلية بسها الدين ثوب الكمال. وبذلك نفهم ان بطولة علي (ع) التي كان من ثمارها فتح مكة وتبوك دون سفك دماء، كانت

<sup>98</sup> سورة التوبة: الآية 111.

<sup>99</sup> سورة التوبة: الآية 36.

عملية اخلاقية تستلهم من مبادئ الدين كل اصولها.

## 5 — سيف علي (ع) تحقيق اهداف الردع:

ومن نافلة القول ان نشير الى ان الردع يحقق اهدافه فقط عندما تتم قضايا من قبيل :

اولاً : علم العدو علماً تاماً بان الطرف المقابل له نوايا قطعية في القتال والحرب والاقدام والتضحية بكل ما يملك. فالبطولة المجردة لا تحقق الردع، ما لم يعلم العدو يقين الطرف المقابل في مبداه وقطعية التضحية اللامحدودة التي يروم تقديمها.

ثانياً : تصور العدو تصوراً واقعياً بان الطرف المقابل قادرٌ فعلاً على انزال الاذى والدمار به. اي ان الايمان بالمبدأ والتضحية بالغالي والنفيس ينبغي ان يكونا متلازمين مع الشجاعة الفائقة والبطولة الفريدة والقدرة على حرق حصون العدو وتدميرها.

ثالثاً : علم العدو بان الطرف الاسلامي المقابل جدير بالتصديق، وكلامه شريف وجدير بالاكبار. ومثل تلك الثقة ترعب العدو. وهكذا كان بطل الابطال علي (ع)، فقد كان (ع) مورد افتخار اسر القتلى، كما جاء في قول هند :

أبي وعمي وشقيق بكري \*\*\* اخي الذي كان كضوء البدر  
بهم كسرت يا علي ظهري<sup>100</sup>

وقول اخت عمرو ابن عبد ود في رثاء اخيها عندما بارزه (ع) وقتله :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله \*\*\* بكيته ابدأ ما دمت في الابد  
لكن قاتله من لا نظير له \*\*\* وكان يدعى ابوه بيضة البلد<sup>101</sup>

وبكلمة، فقد كان علي (ع) يحمل صفات الردع من بطولة نادرة، ونية قطعية في التضحية والفداء، وقدرة استثنائية على انزال الاذى والدمار بالعدو، وصفات دين وتقوى وعفة وزهد تجعل الطرف المقابل يكن له شعوراً يمتزج فيه الخوف بالاكبار، والرهبة بالكره، والتعظيم بالفرار. وعلى اية حال، فان علياً (ع) كان جديراً بالتصديق من قبل العدو. لانه لم يكن في يوم من الايام يجرّض على مجرد القتل ومحض المبارزة التي كان يتفاخر بها ابطال الجاهلية وفرسانها، بل كان يدعو بسيفه الى التوحيد والعدل والرحمة الالهية. ولذلك فقد حقق (ع) بمفرده في سبيل الدين ما لم يحققه جيش كامل.

<sup>100</sup> المناقب — ابن شهرآشوب ج 3 ص 121.

<sup>101</sup> شرح نهج البلاغة ج 1 ص 20. وبيضة البلد: فرد ليس مثله في الشرف. وتريد به علي بن ابي طالب الذي كان ابوه كالببيضة التي هي تربة وحدها ليس معها غيرها، كما في لسان العرب.

لقد كانت افضل اساليب الردع في الحروب الاسلامية ضد المشركين هو اسلوب المبارزة الشخصية التي استخدمها الامام (ع) في قتل ابطال المشركين. فقد اربع هذا الاسلوب «النخبة» القيادية في الطرف المشرك، وجعلها تفقد توازنها الاستراتيجي بعيد المدى. ذلك لان جحيم الموت اصبح يصل اي من المحاربين الذين يكتون العداء للاسلام، قائداً كان احدهم او بطلاً مقداماً او فارساً من الطراز الاول.

ولم تكن بطولته (ع) مجردة من مضامينها الدينية او الرسالية السماوية، فانتصار الامام (ع) بالسيف على عدوه يعني انتصار فكره وعقيدته السماوية على فكر عدوه وعقيدته الوثنية. وهكذا اصبح الدمار الذي ينزله سيف ذو الفقار على المشركين دماراً رهيباً يتجاوز حدود المعركة، على كل المستويات العسكرية والاجتماعية والدينية والمذهبية. وبالاجمال، فقد كان سيف علي (ع) ذو حدين، حدٌ للردع النفسي وحدٌ لإنزال القصاص الحقيقي بالمشركين. فاذا تفاعل الردع النفسي مع انفتاح قلب الانسان وعقله للاسلام نزع المشرك المقاتل رداء شركه ودخل في الدين، والا فان سيف علي (ع) سيكون بالمرصاد لهؤلاء الظالمين والطغاة والمفسدين في الارض.

وهذا هو الذي جعل علياً (ع) محط سهام القوم بعد وفاة رسول الله (ص). فالامام (ع) كان قلب المعركة النابض في حروب الاسلام ضد الشرك والنفاق والوثنية، بحيث دمر قدراتهم القتالية والمعنوية واذاقهم طعم الهزيمة والذل الى يوم القيامة.

\*\*\*\*\*